جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

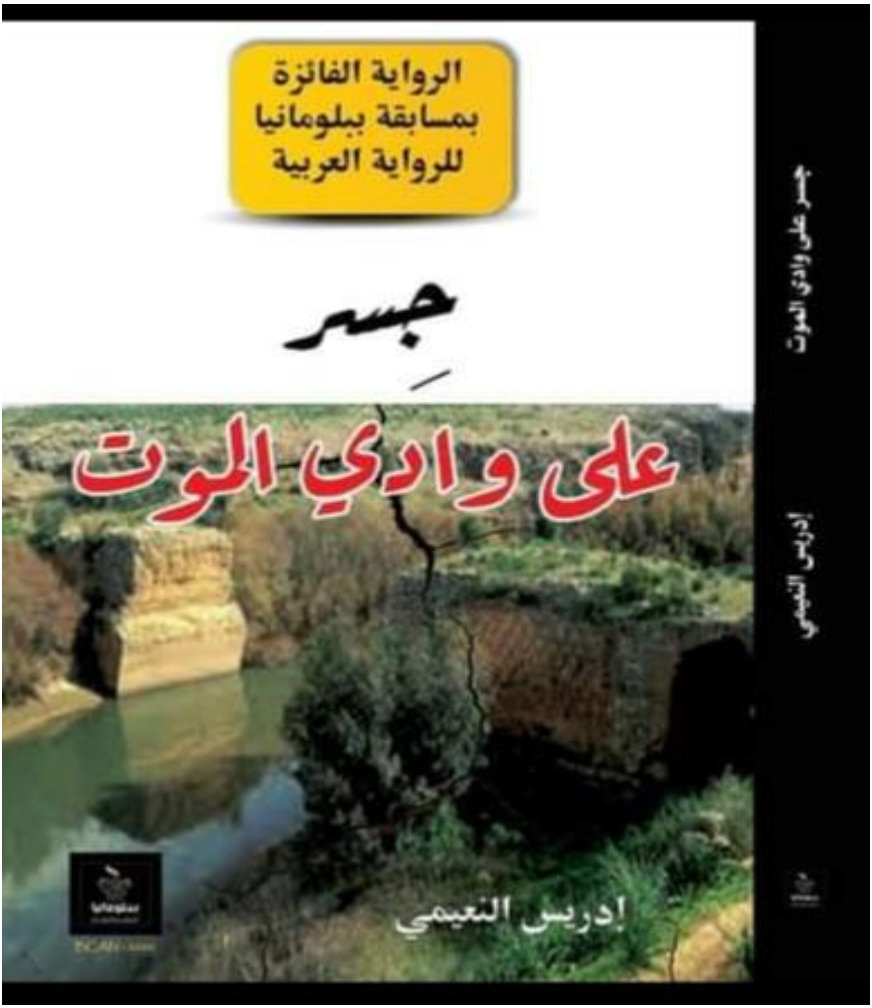

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الكتاب:جسر على وادي الموت
التأليف:إدريس ألنعيمي
الصنف:رواية تاريخية
تصميم الغلاف:دار ببلومانيا
الناشر:دار النشر ببلومانيا
طبعة :**2020**
رقم الإيداع:**20825/2020**

شخصيـــات الروايـــة

الشخصيـــــــات الحقيقية:

*عبد المالك المعتصم:السلطان السعدي زمن المعركة.
*أحمد المنصـــــور:أخ السلطان عبد المالك.
*محمد المتوكـل:ابن أخ عبد المالك.
* دون سيباستيـــان: ملك البرتغال.
*فليب الثاني :إمبراطور إسبانيا وأقوى ملوك أوربا آنذاك.
* أبو المحاســـن: عالم،ومتصوف مغربي.
* وليام جيمس:ممثل الباباغريغوريوس الثالث عشر.

الشخصيـــــات المتخيلة:

*حمـــزة: ابن قرية الجبل.
*شمس- الضحى : فتاة موريسكية.
*ابن شرف الإشبيلي: والد الجميلة شمس.
*العم شمويل العبراني: يهودي موريسكي.
*العربي ابن مي حليمة: والد حمزة .
*شيخ الجبل : متعبد صوفي.
*الصافية : والدة حمزة.
*المامون الفلالي: تاجر أسلحة من بلاد تيط.
*عباس مفتول العضلات: أحد رعاة قرية الجبل.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

إهداء

إلى محبي الرواية والتاريخ
إلى زوجتي سر إبداعي،وملهمتاي ياسمين وسارة

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

تقديم للدكتور رشيد العلوي العبدلاوي :

تكمن القيمة النفسية والفكــرية لرواية " جسر على وادي الموت " أن الفاعل لا يبني الموضوع بل إن كليهما ينشآن في علاقة وحيدة ، وهذا ما يسميه هوسرل بالحركة القصدية .

وبهذا فإدريس النعيمي يحاول من حيث يشعر،أن يبرهن على إمكانية الجمع بين أحــداث الماضي والتعبير عن أحاسيس وانفعالات الذات المنغمسة ، بكل وعـي ، في رصد طبيعة تلك الأحداث ، وهذه إمكانية لن تتحق دون محاولة صهر واندماج " الواقعـي بالمتخــيل " ، كما قال بذلك الناقد والشاعر جـون إليوت . وبالفعـل فإن الأستاذ النعيمي نجح ، بكل حنكة واقتدار ، في صياغة هذه المعادلة الصعبة من خلال مجموعة من المكونات والمفاهيم التي تفاعل معها وعالجها وهي :

-الموت.
-القدر.
-الوطن.
-البطولة.

وهكذا فإن المتتبع للأسلوب والطريقة الذين عرض بهما النعيمي طبيعة وعقليات الشخصيات التي اعتمدها في روايته،والسلاسة التي عبر بها طيلة فصول الرواية ، ليدرك بجلاء الحنكــة والدراية في البناء الدرامي، لكن النعيمــي الروائي سرعان ما يفسح المجال للنعيـمي المؤرخ ، ليكشف عن خبرته كمحلل للظروف المأساوية التي عاشها مسلمو الأندلس زمن محاكم التفتيش،ثم الدوافع التي أحاطت بتدخل البرتغال في المغامرة المجنونة التي انتهت بمعركة وادي المخازن والأصداء السياسية التي خلفها انتصار المغاربة في هذه المعركة.

وإن ما أبان عنه صاحب رواية " جسر على وادي الموت" ليؤكد روح الجدية في العمل ، ثم روح الالتزام بالقيم الوطنية ، والقومية.

فــاس في **2020/10/21**

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الفصل الأول : العدو خلف الأبواب .

"قريبا تحجب التلال البعيدة ضوء الشمس ،حيث تنام في حجر الملائكة ليلة كاملة،فلا تبتعد يا صغيري عن المدشر."

كان هذا الجزء الأخير من وصية الجدة مي حليمة -التي يكن لها الصبي حبا -يزداد عقب كل مساء حينما يأوي إلى فراشه بينما تنهمك هي بسرد حكاياتها التي تكاد لا تنتهي.

والحق أن تحذير الجدة لحفيدها له ما يبرره حتى وإن بلغ حمزة العقد الأول ،فهو مازال في مخيلتها ذاك الملك الذي يملأ البيت فرحا وطربا، بينما تشم هي في حفيدها بين الحين والآخر ذكرى العربي...فمع انسدال الظلام على" قرية الجبل" الشبه معلقة بين جبل شامخ، ونهر تتدفق مياهه على الطرف الأسفل من تلك القرية، يهرع الصبية إلى الداخل بينما ينهمك عباس الراعي مفتول العضلات، وباقي الرعاة لإدخال القطعان خوفا من " شبح النهر"..

الصافية أكثر النساء اللاتي ذقن ويلات ذاك المفترس ، تظل حريصة على ابنها حمزة وعلى ماشيتها ،بل وعلى كل من في القريــة.

وحده ذاك الشيخ الزاهد يرفض النزول من أعلى الجبل للاحتماء من المفترس...إنه يعتقد يقينا أنه مصدر لحماية ما تبقى من أهالي القرية ..مستخدما سلاح الدعاء من أعلى قمة الجبل التي اتخذها مقرا لسكناه، أما نساء القرية فهن على يقين مطلق أن قوة تحقق أدعيته ناجمة عن اقترابه من السماء.فلا يرى الشيخ إلا وهو يصلي في خشوع أو رافعا أكفه، مرتلا أدعية وابتهالات لا تصل أهل القرية منها سوى بعض الكلمات غير المفهومة .

يفضل شيخنا ذي السبحة الخضراء واللحية البيضاء الطويلة، كل مساء مراقبة النهر حينما تبدأ الشمس بالتواري خلف الجبل، بينما ينعكس ما تبقى من أشعتها على المياه المتدفقة بلا نهاية ، يظل يتأمل ذاك المشهد..خرير المياه المتدفقة من العيون النابعة من أعلى سفوح الجبل - حيث سكناه الأبدي- يغذي روحه ، ويشحن

أفكاره ، ويربطه بتلك الصلة الربانية، التي يقدسها كإنسان زاهد في الماديات، منجذب نحو الروحانيات.

وذات ليلة بينما مي حليمة تنسج خيوط حكايتها عن "شبح النهر"محتضنة الصبي في حجرها وهي تخلل شعره بأصابعها ،إذ فاجأها حمزة:

جدتي،جدتي:هل الشريف هو شبح النهر؟

- طمأنته الجدة ،وهي تغالب ابتسامتها الخفية:

-لا يا بني، شبح النهر هذا لا مرئي ، جبار ،يهجم دون سابق إنذار،وتتجم عن صولاته أصوات الحديد والدمار..لم تكمل مي حليمة وصفها للشبح حتى جـثا الصبي على ركبتيه مستغربا ومقاطعا حديثها:

-"والشريف،ألا يخاف شبح النهر هذا !

ردت الجدة وهي تعيد صبيها على هيأته الأولى كي ينام مطمئنا:

"بل يقال يا بني أنه لولى الشريف لكان هذا الشبح قد محا قريتنا من الوجود،فهو يمتلك سلاح الدعاء، والذي بفضله لا زلنا صامديين .ثم علت ابتسامة على تجاعيد خدودها التي خطت معظم وجهها:

*اعلم يا ولدي ولله الحمد على شيخنا فبركته لا تخيب ،إنه شمعة نور تضيء ظلام قريتنا، وتزيل الهم والخوف عنا..و..و..كان حمزة قد غط في نوم عميق، تاركا الجدة تسرد حكاياتها وأزلياتها .

قبل سنوات تعرضت قرية الجبل لاكتساح مدمر من الشبح،فقد ظهر فجأة وأخذ الأهالي على حين غرة،لم يكتف الشبح هذا بأسر العربي ابن مي حليمة ومعه ثلاثون من رجال القرية، وكثير من النسوة،بل تعدى الأمر إلى إضرام النار في محاصيل القمح التي كانت تسقى من جداول النهر- وهو المصدر الأساسي لرزق أهالي قرية الجبل -..وحتى مواشي القرية لم تسلم من هذا الهجوم.

بنبرة حزينة وسخرية سوداء، تستحضر الصافية ذكرى هذا الحدث:

-"أبى حمار العربي إلا أن يرافق مولاه في الأسر"

أما الجدة فلا تفتأ عيناها تفارقان الدمع كلما أبصرت مغيب الشمس، مسترجعة لحظة كان العربي عقب كل مساء وهو عائد إلى البيت حاملا خيرات الحقل وبضع سمكات اصطادها من

النهر.أما الآن، ونتيجة لتلك الحادثة الرهيبة، فلم يعد فلاحــو ورعاة القرية يجرؤون على حرث الحقول البعيدة عن القرية خوفا من هجوم محتمل في كل لحظة وحين.

ما أسوأ أن يعيش الإنسان في جو الخوف والترقب ،خصوصا في موقف كموقف قرية الجبل تلك،هجمات متتالية ،عدو غادر ،ونساء مكلومات بفقد أزواجهن وأولادهن.

في الصباح الباكر- وكما هي عادة الصبية - استيقظ حمزة، وقبل تناوله فطوره البسيط أسرع خارج البيت، للعب مع أقرانه مستغلا يوم الأربعاء، كيوم إجازة ممنوحة للصبية من فقيه القرية.لكن هذا اليوم سيظل محفورا في ذاكرة الصبي ،لم لا وقد بادرته أمه قائلة:

*"تعال يا ولدي،تناول فطورك، ثم رافق جدتك في زيارتها لسيدي شريف..كان نزول الخبر على قلب حمزة كهبوب نسيم الصباح، على وريقات الياسمين الندية.

-هل الشريف هو شبح النهر يا جدتي؟

لم يفارق هذا السؤال خيال حمزة، بل امتزج معه بشيء من الوجل، وكثير من الفضول والرغبة الجامحة في العثور على جواب لسؤاله بنفسه، حينما حل موعد الزيارة إلى أعالي الجبل..لم يقاطع حواره الداخلي، إلا صوت الصافية من جديد وهي تسأله:

*حمزة:حذار يا بني من صعود الجبل ،وانتبه جيدا إلى جدتك"

أجابها الصبي إجابة الواثق مــن نفسه:

-لقد كبرت يا أمي،ولم يعد تسلق الجبل يخيفني .

قاطعته الأم ثانية باسمة المحيى ، وهي تصب الحليب الساخن في كوب الزجاج:

-وجدتك !هل ستفر وتتركها، إن حدث وداهمكم الشبح؟

كان سؤال الأم لولدها ذكيا، يحاول تشجيعه أكثر مما هو جس نبض لشجاعة حمزة المبكرة.

أجابها مندهشا:

*تعرفين يا أماه ،أني يوم أمس، حملت وحدي قرب الماء من سفح الجبل، حينما طلب مني سيدي الفقيه ذالك،وحينما أكبر ويشتد

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

عودي بإذن ربي، سأحارب ذاك الشبح، الذي جثم على أرضي، وضيعني في أبي ..وذلك بضربات من سيف والدي الذي تركه معلقا، واختفى دون عودة.

ردت مي حليمة على حفيدها ، وهي تغالب دموعها السخية، مبدية جانبا من الدهشة والافتخار بالبطل الصغير:

*اعلم يا بني، أن والدك لم يختف جبنا ولا خوفا،ولو كان معه سيفه ما كان اختفى...ولكن خديعة العدو فاجأته دون سابق إنذار.

كانت الصافية توزع نظراتها بين ابنها، وحماتها، بنظرات إعجاب، وكأنها تود أن تقول في قرارات نفسها:

- لقد قلت يا حمزة كلاما أكبر من كل رجال القرية.

وبينما مالت الشمس نحو كبد السماء وأشرفت على وقت الضحى، كانت الجدة وحفيدها قد صعدا الجبل مقتربين من زاوية الشريف،وان كانت صعوبة التسلق قد أنهكت مي حليمة، إلا أن نفسها التواقة للتبرك من الشيخ الجليل، بالإضافة إلى رغبة حفيدها في التحدي ،جعلتها لا تبالي بصعوبة الصعود، بروح أقوى من قدرة جسمها المسن.

أبصر الشيخ ضيوفه،فخرج مسرعا للقائهم على غير عادته. فحتى وإن كانت زاويته مفتوحة دوما لزواره، فعادة ما يجلس حتى يدخل عليه ضيوفه..فربما رأى في الجدة وابنها ما يميزهما عن الآخرين !

-"بسم الله على بركة الله". كان هذا صوت الجدة ،وهي تلقي التحية على سيدي الشريف ممسكة بيد حفيدها ، ثم ارتمت على يد الشيخ تقبلها ، قابلها الشيخ بالترحاب والدعاء ومسلما على الصبي حمزة.

-" الله يبارك فيك وفي ابنك هذا ،فما اسم الصبي؟

- اسمه حمزة يا سيدي شريف.

رد الشريف وهو يشير للضيفين بالجلوس دون أن يرفع عينيه عـن الصبي – وكأنه رأى فيه أمرا مبهما ،ولا يريد أن يبديه للجدة - قائلا:

-أصلحك الله يا بني،ما أجمل اسمك .أتدري ما معناه"؟

أجاب حمزة: لقد قال لنا سيدي الفقيه "إن قدرنا في أسمائنا".

أطرق الشريف برهة، وأجاب وهو يلتفت إلى مي حليمة، قائلا لها بلغة الواثق:

-حقا إن في نهايــة هذا النهر قدر حمزة"

وما زاد من دهشة الجدة أن الشريف لم يضف إلى ما قاله أدنى كلمة..فما كان منها –وهي الأم المكلومة بفقد ابنها العربي من ذاك النهر نفسه -إلا أن وقفت وهي تغالب دموعها :

"رحماك رباه،هل مصير حمزة كمصير أبيه ! يا سيدي..

أدرك الشريف أن الجدة لن تفهم المغزى من كلامه ،لذلك اكتفى بأن أشار لها بسبابته وعيناه شاخصتان إلى أعلى،فردت عليه مي حليمة:

-وحده يعلم الغيب،لكني لن أدع فلذة كبدي صيدا سهلا لهؤلاء المغتصبين ،حتى ولو كلفني الأمر حياتي ..إني ..

قاطع الشريف همهمة الجدة بأن حول مجرى حديثها، ومستدرجا حمزة ليسأله عن دراسته في المسيد، سائلا إياه عن عدد السور التي حفظها، وعن الدروس التي استوعبتها ذاكرته الصغيرة ..ولعله كان يبحث عن جواب محدد لأسئلته تلك، قد تكون جس نبض مبكر عن كشف مدى تعلق الفتى بقريته ووطنه،ولم يمض متسع من الوقت حتى أدرك يقينا أن الصبي هو المعني بالقدر.

أخرجت مي حليمة من سلة الدوم بيضا مسلوقا وسمنا، وناولتهم لسيدي الشريف طالبة منه الصفح عن التقصير، فمكانة شيخ الجبل لدى الأهالي أكبر مما حملته قفتها..

تردد الشريف وقد بدا عليه التعفف ،قائلا:

- باركك الله ،فلا حاجة لي بذلك كله،ولا داعي لأن تكلفي نفسك، فصائم النهار، وقائم الليل ..يكفيه النزر اليسير من القوت.

وقبل توديعهما أخرج الشريف لوحة من الخشب كانت معلقة بعناية على سقف "الحوش" وناولها لحمزة قائلا للجدة :

- استبدلي له لوحته القديمة بهذه حينما يتمم "السلكة" الأولى وعودي به إلي حينها.

ودعته الجدة راجية له طول العمر، ومتمسكة بحفيدها أكثر من أي وقت مضى، وكل فكرها منصبا لما قاله الشيخ عن" النبوءة الغامضة"..لقد أدركت من خلال تلميحات الشريف أن حفيدها مبارك، وأنه ينتظره قدر سيجرفه له ذاك النهر الملتف حول قرية الجبل.

وكما هو حالهم حينما صعدوا القمة المرتفعة ، هاهما يواجهان صعوبة النزول مع خطر الانزلاق، إذ لولى إرشاد الشريف لهم بإتباع طريق ملتوية، وغير ظاهرة للعيان لكانت الجدة في ورطة.

هاهو الفقيه يرفع صوته مناديا لصلاة العصر ،فحثت الجدة حفيدها للإسراع ..فقد يكون هناك طارئ حدث في غيابها

- أليست كل أم تتوقع مثلما جال في خاطر مي حليمة؟

وما ذاك إلا لإحساسهن بحجم المسؤولية .

فعلى الرغم من أن قرية الجبل تعيش منذ سنين خلت على وقع الطوارئ، وصار الأمر جزءا من يومياتها الرتيبة..غير أن تجمع جل الأهالي جانب المسجد سواء الذين يلتزمون بأداء الصلاة، أو أولئك الذين يفضلون فقط التجمع لمعرفة أي خبر جديد، أو ضيف قادم من بعيد.

صاح "البراح":

- يا أهل القبيلة،يا أهل القبيلة: ما تسمعون إلا الخير،هاهو مبعوث مولانا يريد إخباركم بأمر.

تقدم الرجل الراكب لفرس أدهم، ومرتديا زيا رسميا يؤكد انتماءه للسلطة ،وما لبث أن أخرج من محفظته رسالة افتتحها بقوله:

*"هذا مولانا السلطان أدام الله عزه ...يستعد للجهاد ضد هؤلاء النصارى المحتلين لأرضنا ، ويأمركم بتجهيز الرجال والمؤن، لأن قريتكم ستنال شرف مرور الجيش منها.

والحقيقة أن نزول وقع هذا الخبر على أهل القرية كان قد أساءهم أكثر مما سرهم ، فهم لا يعلقون آمالا عريضة على مثل هاته الأخبار، إنهم يعتقدون - ولتجاربهم السابقة - أنها لن تبرح قريتهم، أو أن تخترق أسوار أصيلا التي حصنها العدو، وجعل منها قاعدة تواجده،ثم يتلاشى كل شيء ، يعود بعدها جيش السلطان إلى مقره

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

بالعاصمة،تاركا قرية الجبل لمصير الانتقام الذي يكيده لهم المفترس.

في خضم هذا الصمت المطبق على قرية الجبل من وقع الخبر، همست الغالية في أذن جارتها وهي ترقب مبعوث مولانا:

-أن هذه الحــركات، نتحمل نحن ساكنة القرية تبعات ما قبلها، وما بعدها"

ردت الصافية، وقد أعادها خبر البراح إلى تذكر زوجها العربي:

-حقا يا جارتي، وما أسر العربي ورفاقه، إلا انتقاما من النصارى على هذه الحــركات التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

إن المؤن الواجب على القرية دفعها لجيش مولانا، الذي سيمر منها قريبا ،ستكلف الأهالي الكثير في ظل محدودية استغلال كل الحقول تخوفا من هجمات تعصف على حين غرة.

لم يكتف مبعوث السلطان قبل مغادرته أن ينبه أهل القرية بقوله:

-"اعلموا يا حماة الثغور، أن مولانا السلطان ، قد أجمع على طرد هؤلاء المحتلين نهائيا من أرضنا، لذا فالحاجة ماسة لسواعدكم، وأنتم من خبرتم مكامن قوة وضعف أعدائنا،فبالعزيمة هاته المرة، ستزول كل توجساتكم التي بدت على معظمكم وستدفع بهؤلاء، ليس فقط إلى حصونهم بالساحل ، بل إلى برهم ما وراء البحر.

هنا تجرأ عباس –الراعي مفتول العضلات- هاشا بعصاه، وموجها تحية سلام إلى المرسول :

- ولكن مولانا السلطان لا يدري أننا نحن أهالي قرية الجبل، القريبون من حصون هؤلاء النصارى من نتحمل الخسائر لوحدنا حال عودة جيش مولانا إلى دياره !

تدخلت الصافية في أطراف الحديث :

- وزوجي العربي؟ ألا من أحد يكلف نفسه عناء البحث عنه،أو حتى استطلاع أخباره،ولقد عاهدت نفسي أن أسير مع جيش مولانا السلطان حال مروره بقريتنا.

لم يجد المبعوث بدا لمواساة الصافية إلا أن خاطبها:

-"فليكن في علم الجميع أن مولانا حزم أمره، وسنسترجع بإذن الله كل شبر من أرضنا،وكل رجل من بلدنا محتجز لدى النصارى"

وحدها الجدة كانت تدرك أن هذا الكلام المعسول لا أساس له من الواقع في شيء .

كيف لا؟وهي السبعينية التي عاشت على عهد ملوك وسلاطين رددوا نفس الكلام،بل وأكثر منه حماسة ،لكنهم عادوا أدراجهم حينما اصطدموا بعدو لا يرحم الكبار، ولا حتى الصغار.

إن ســنوات وعقود من الظلام مرت من أمامها في لحظة ..وهاهي تترحم على زوجها الذي مات، وفي غصته ذكرى ملحمة وصول البرتغاليين إلى السليبة سبتة،وما سمعته من نصراني كان أسيرا لدى القرية قبل أن يسلموه لجيش مولانا :

-"إن القديسين هم من فتحوا لنا أبواب سبتة،ومريم العذراء هي التي أرشدتنا عبر البحر."

والعربي .. آه آه يا بني ، لكم أود أن أراك قبل أن تفارق روحي هذه الحياة المظلمة كقطع الليل الحالك.

تفرق الجميع تاركين الجدة تتذكر محطات من حياتها تلك،وهاهم أهالي قرية الجبل قد ضربوا موعدا مع المرسول.

- فما هي النتيجة ؟

خمس سنين مضت دون أن يعود مرسول مولانا..خمس سنين ازدادت معها الحياة سوادا ورعبا في قرية الجبل....فلم تعد القرية تسمع عن جيش السلطان ولا عن مبعوثيه،بل إن ما حدث للقرية ولأهاليها سيؤثر عليهم في قادم السنين.

لقد هجم العدو على القرية عشرات المرات، وكل مرة كان كمثل ذاك الطائر الجارح ينقض خلسة على أحد ساكنة القرية، أو يهجم على مواشيها،ثم يختفي تاركا وراءه العويـــــل والنحيب.

خمـــس سنين مرت ،غادرت مي حليمة قريتها بصمت دون أن تحقق أقل أحلامها:

*"رؤية ابنها العربي ،أو حتى انجلاء كابوس الحصار من نصارى البرتغال".

وغادر الحياة كثيرون من جيل مي حليمة،جيل عاش على وقع الخوف، وفقد الثقة في الحكام...جيل رحل عن القرية وهو شاهد على قرن من الغزو الأيبيري المدمر.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

تخاطب الصافية ابنها الوحيد:
أتذكر يا حمزة آخر ما أوصتك به جدتك قبل وفاتها؟
بلى يا أماه أذكر، فهو محفور في عقلي وقلبي.
* ألم تخاطبني:
"إن جيل الخوف مثلي، قد أوشك على نهايته، مستقبلنا فيكم يا جيل الأمل."
كان لا بد مما ليس له بد ، أن يحل ذاك اليوم الذي ستسمع فيه الصافية كلمة الرحيل من جديد،فابنها وقد أكمل " السلكة" عند فقيه القرية، والذي نصحه بشد الرحال نحو منارة العلم "القرويين" قائلا له:
-اعلم يابني أن كل آمال والدتك فيك ،وفاس هي " واسطة العلم ، وتاج الملك" ونحن في هذه القرية ما أحوجنا لطرد الخرافات التي عششت في عقول ساكنيها.
*ولكن أمي وقريتي في حاجة أكثر إلى خدماتي يا سيدي الفقيه؟
-"لا تخف يا ولدي، فالقرية كما عاشت قبلك، ستعيش بعدك .غير أنها في حاجة أكثر إلى علم ينتشلها ، قبل حاجتها إلى محارب يحميها من عدوها".وهكذا اقتنع حمزة بكلام شيخه الذي يعتبره بمثابة والده..والده الذي لم ولن يره قط.
رد حمزة:
سيدي لفقيه، أعدك بالعلم والتحصيل، وإني سأعود إلى قريتي ناهلا من علوم شتى ،فالوعد الذي ضربته لجدتي سأنفذه لا محالة.وودع الفقيه مقبلا يده بحرارة راجيا الدعاء منه
في ذاك المساء نفسه قبيل الرحيل ،اجتمعت الصافية بابنها حول مائدة العشاء، والذي كان بسيطا كعادته، رغيفين وكوبين من الحليب..وقد أخفت الأم مرارة ما تشعر به في قلبها ومازحت ابنها :
*كل يا حمزة من رغيف أمك..فلا شك ستفتقده في فاس.
وكأن الفتى أدرك المغزى من كلامها .فأجاب قائلا لها:
-أجل يا أماه ،فلا شيء يعجبني أكثر من رغيف أمي..
وحتى لا يترك الفتى الفرصة لألم الفراق تطغى عليهما،أراد تغيير الموضوع .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أخبريني يا أماه:
" فقد سمعت أن جارتنا الغالية أضحت تعيش لوحدها، بعد وفاة زوجها عمي الصالحي بالطاعون ،أفلا تستدعيها لبيتنا فتعيش معك ريثما أعود؟
أجابته الصافية: أجل يا بني ،فقد عرضت عليها الموضوع منذ أن شارفت إكمال السلكة.
والحق أن ما طمأن حمزة هو التوقف الفجائي لهجمات نصارى المدينة على قرية الجبل وباقي المداشر المجاورة لها ،فقد ران لسمعه أن هؤلاء البرتقيز لما سمعوا بانتشار الوباء وحصده لأرواح العديد من ساكنة قرية الجبل والقرى القريبة منها ، لم يعد ذاك الشبح يفارق الساحل خوفا واحترازا من انتقال المرض الفتاك إليه.فرب ضارة نافعة ،حتى وإن كان أهل القرية غير متأكدين من صفة الوباء.
- هل هو طاعون فعلا ذاك الذي أودى بحياة القرويين ؟
-أو مرض آخر معدي له نفس خصائص الرعب التي تأتيهم من شبح النهر؟
ربما أن خوف الضحية والمفترس من الوباء أنقذ مؤقتا قرية الجبل من عدوها الأكثر فتكا بها منذ عقود خلت .
قرب النهر يمزح عباس-الراعي مفتول العضلات- مع أقرانه من رعاة القرية:
*ترى من الأشد وطأة يا شباب: الطاعون أم الشبح؟
- سمعت أن الموبوء يبعث شهيدا (يجيب أحدهم)
يرد عليه عباس في ازدراء وتهكم أشد مرارة:
*ولكن قتال أعداء الدين والموت في ذلك هي الشهادة في سبيل الله !
أدرك الرجل أن كلام عباس يحمل بين ثناياه لوم وعتاب ،فأجاب بنبرة حازمة:
-ولكننا لم نتقاعس يوما عن حماية قريتنا من العدو،وحتى وإن كان أكثر تسليحا منا وأشد منعة،وما صمودنا أمام هجماته إلا خير دليل على قيامنا بالواجب.

ويرد عباس الراعي مفتول العضلات:
"أتعتقدون أن حماية قطعانكم من تلك الهجمات هو المقصود بالجهاد **!"**
إن عباس ذلك الراعي البسيط والأمي، الذي علمته ماشيته معنى الصبر،هو على يقين أن الأساليب التي تنهجها القرية وباقي المداشر المحيطة بها لن تغير الوضع القائم منذ سنين خلت.
إن قرية الجبل في حاجة إلى قوة روحية تشد من أزرها،في حاجة إلى استراتيجية حربية وقيادة شجاعة مجربة وعالمة بشؤون الحصار ومواجهة العدو.
ومن أين لهم بتلك القوة؟
وإلى متى سيظل أهالي قرية الجبل صامدين في وجه زمن لا يأتيهم إلا بالوباء..وهجمات الأعداء؟

صباح ذلك اليوم من ربيع مشمس ،كانت الصافية على موعد مع الرحيل الثالث،فراق ابنها حمزة ،عزاءها الوحيد في اعتقادها اليقيني أن فراق وليدها لن يستمر طويلا، كحال زوجها العربي الأسير في يد أعدائها،وحماتها مي حليمة التي غيبتها المنون منذ خمس سنين مضت.
ذاك الصباح نفسه الذي وصلت فيه القافلة القادمة من تطاوين ، والمتجهة صوب طريق الذهب نحو الصحراء في رحلة تتراقص مع الزمن ،رحلة عمرت لعشرات القرون..رحلة لم توقفها لا هجمات البرتغاليين أو حتى تعاقب الدول والسنين. وحتى وإن فرض وضع احتلال السواحل على القوافل التجارية ضرورة تغيير مسالكها لكنها حافظت على استمراريتها.
وبينما أطفال قرية الجبل منشغلون بلعبهم اليومي وشجاراتهم التي تميل إلى العنف أحيانا ، أبصروا قافلة قادمة صوب القرية.
صاح أكبرهم سنا:
- نحن نتعرض لهجوم ،عاد المفترسون،فلنخبر باقي أفراد القرية..إنهم قادمون نحونا.ثم علا صوت صياحهم ..
لكن حمزة -ولعلمه السابق بخبر القافلة - طمأنهم قائلا:

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

*يا لزمن صرنا فيه لا نفرق بين الصديق والعدو ،لا تخشوا شيئا إنها فقط قافلة مغربية، غرضها تجاري وسنبتاع منها ما نريد.
-أو لم يجدوا مسلكا غير قريتنا ! رد أحدهم.
فأجابه حمزة بلهجة العارف :
"إن موقع قريتنا يجعل منها ممرا لا غنى عنه بين الجبال والتلال الرابطة بين تطاوين وفاس"
ولم يكمل كلامه حتى قاطعه الصبي:
- لكنه نفس الموقع الذي يجر الويلات على قريتنا مع كل غارة يشنها هؤلاء النصارى !
لم يرد حمزة أن يستفيض في الحديث ،فقد كانت أمه الصافية تنتظره في الداخل،لتعد له زاد السفر،لذا فارق الصبيان وهو مسرور لما عاين من شجاعتهم المبكرة.
وهاهي القافلة تتهيأ للنزول بعيرها ورجالها –المستعدين لكل طارئ- يرجون فترة راحة .وقد اختار قائدهم الساحة المحاذية لمسجد القرية ،لتكون مقرا لهم.
وما هي إلا لحظات، حتى انعطف نحوها شباب ورجال ونساء المدشر ،حيث قدمت للقافلة المياه العذبة، والحليب والخبز الساخن، بينما تقدم زعيمها نحو إمام المسجد :
*"سي لفقيه جزاك الله خيرا، لو تفضلت علينا بماء دافئ فما زال أمامنا طرق طويل"
رد الفقيه:"أكمل الله سفركم، وبارك في تجارتكم ،لكن الصلاة وأخذ فترة للاستراحة هما شيئان يريحان النفس.." م أومأ لهم بالترحاب والسرور:
*" حللتم أهلا ،ونزلتم سهلا،ولكم منا ما تطلبون ".

الفصـل الثاني : أسيـر في مقتبل العمر.

هناك في أصيلا، وفي زنزانة صغيرة، مظلمة،وباردة، تفوح منها رائحة التعذيب، وآثار لبقع مياه آسنة ، قيد حمزة من يديه، على سارية منتصبة وسط الحجرة.

قال قائد الحرس لجنوده:

"لا تجعلوا القيد يترك آثاره في يدي الفتى، فالتجار البنادقة لن يعطونا الثمن الذي نطمح أن نبيعه به."

لم يفهم حمزة فحوى الحوار الدائر حوله، فهو لا يجيد سوى لغته الأم ،أما البرتغالية فيعتبرها آخر لغة قد يتعلمها ،كما يعتبر أهلها كطاعون جثم على بلدته.

- ترى هل أبي العربي مر من هذا المكان ؟
- أم مازال يعيش أسيرا مثلي في هاته المدينة ؟
- أو أن قدره كان أسوأ من قدري؟؟

هذه التساؤلات وغيرها لم تفارق بال حمزة منذ أن تم أسره ، واقتيد مكبلا مع من بقوا أحياء من القافلة التي كان يرافقها عائدا إلى قرية الجبل ، بعد أن قضى بمنارة العلم مدة زمنية ، كانت زهرة أيامه، نهل من الأحاديث والفقه وعلوم اللغة والنحو والتاريخ والحكمة الشيء الكثير...وبعدما اشتاق الفتى لرؤية أمه وقرينته، عزم على العودة مؤقتا ليراهما ، غير أن الأحداث عجلت له بسيناريو آخر مظلم لم يكن يتوقعه حتى في أشد أحلامه سوادا.

فقد باغتت القافلة، التي ارتحل معها راجعا إلى قرينته، كتيبة برتغالية بعد أن رصدت تحركاتها عيون خائنة ،أبلغت أسيادها البرتغاليين بخروجها ومسار تحركها، وحتى بما تزخر به من سلع وأموال.

انقضى زمن دون أن يعرف حمزة المصير الذي ينتظره في مدينة أصيلا التي ترزح تحت قبضة المحتل ،وهاهم أهاليها وأهالي القرى المجاورة لها يعانون الويلات في وطنهم وفوق أرضهم.

لم تدري الصافية أن ابنها الوحيد الذي أرسلته لإتمام دراسته ، بعد أشهر على انقطاع رسائله إليها..قاده حظه العاثر عبدا أسيرا

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

لدى نصارى المدينة،لقد كانت تمني النفس بأن يبعث لها الفتى خبره مع أول قافلة تخرج من فاس نحو الشمال، وهو الخبر الوحيد الذي يطمئن قلبها، على فلذة كبدها، أو أن ترتسم في عقلها ولو مجرد فكرة عن حياة ابنها بمدينة العلم تلك.

أما حمزة فقد اقترب منه أحد الجنود البرتقيز وخاطبه بلغة عربية:

*من أي البلاد أنت؟

رد الفتى بنظرة عابسة:

- من البلاد التي تطأ قدمك فيها الآن.

وبضحكة تحمل بين طياتها غضب مخفي، وغيض مكتوم،رد الجندي:

*وما أغنت عنك يا هذا ! فأنت الآن في بلادك، وأسير فوق ترابها.

أجاب حمزة:

-لكن وجودكم له نهاية، كما كانت له بداية. ويوما ما- وأخاله قريبـــــا- ستعودون من حيث جئتم ، فالاحتلال لا يلبث أن يزول.

والحقيقة أن جواب حمزة وإن أغضب الجندي البرتغالي، إلا أن صدى الكلمات الشجاعة التي تنبعث من نفس وقلب الفتى قد أثرت في هذا الجندي المنحدر من أسرة الفرسان الصليبين الذين يتحلون بالشجاعة والنبل وتقدير الخصوم.

أطرق الجندي برهة،ثم خاطب حمزة:

"في كلامك –ورغم صغر سنك-عزم وشجاعة،ولحسن حظك أنك تخاطب جنديا يقدر خصمه مثلي،فحذار أن تبديها لغيري من الجنود، فقد تجد نفسك حينها مصلوبا على نفس السارية التي أنت جاثم عليها."

ظل حمزة طوال أسره يبدي جلدا وصبرا منقطع النظير،وكلما ضعف أمام واقع القيد والأسر وذكرى والديه ، يجول في خاطره ذاك البلسم الشافي ،ألا وهو حواره مع شيخ الجبل سيدي الشريف ،تغذي طموحه قولة الشيخ التي تحولت إلى ما يشبه نبوءة في وعي الفتى:

"إن في نهاية هذا الـــــنهر قدر حمزة"

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان ذاك جزء من الحوار الذي دار بين شيخ الجبل ومي حليمة، حين زيارتهما إلى مقر الشريف ،والآن وقد تغيرت الأحوال، ولم تستقر على حال. فإن تلك الجملة لم تفارق يوما مخيلة حمزة ، وها قد حان القدر الذي ذكره شيخ الجبل .

- هل يستسلم لمصيره؟
- أم يعيد قراءة قدره بفلسفته الخاصة؟
- أم تراه فقط يتوهم.. فمحطة الأسر هاته، ما هي إلا بداية لكابوس طويل مجهول الخواتم؟

كلها تساؤلات مرت كشريط أحلام ومتمنيات في مخيلة الأسير،فقديما قيل:"ما وراء الظلام إلا فجر نور يتسامى " وعقدة الأسر يبدو أنها ستتغير مجرياتها على حمزة، نظرا لحجم التطورات الجديدة التي ستعرفها أصيلا.

ذاك الإشبيلي الموريسكي وباقي أسرته ،كانوا من أواخر الأسر الأندلسية التي ظلت مختفية بوادي غرناطة من ملحمة الخروج التي كتبت على أهل الأندلس، بعد زوال آخر معاقلهم ، وتسليم محمد الأحمر لقصر الحمراء ،هناك على التل المطل على المدينة ، أو ما سيسمى ب " تل زفرة العربي الأخيرة".. سلم الملك الضليل المفتاح للملكين إيزابيلا وفردناند ذات يوم مشئوم من ربيع **1492**للميلاد.

فابن شرف الاشبيلي الأصل ولامتهانه العطارة ،ظل يتجول في الأنحاء المجاورة لغرناطة طيلة الخمس سنوات الممتدة ما بين**1570 -1575** للميلاد ،حينما وشى به أحد الغجـــر الجواسيس، الذين كانت محاكم التفتيش الإسبانية تقدم لهم الأموال والهبات مقابل الكشف عن المورسكيين المختبئين في أنحاء اسبانيا.

والمعلوم أن ابن شرف هذا وغيره كثير.. كانت سلطات الملك فليب الثاني ، قد استعدت لتنصب لهم محاكم بتهم جاهزة بعد اتهامهم بالمشاركة في " الثورة الموريسكية الكبرى" التي اندلعت في جبال البشارات، قرب سلسلة سييرا نيفادا الشاهقة. كانت هاته الثورة الكبرى قد نشبت بتخطيط من فرج بن فرج، أحد أمراء بني الأحمر

، ويعينه قائـــد أمـــــوي يسمى محمد بن أمية، ويلقب باسم قشتالي " فرناندو دي بالور " والداهية محمد بن عبو ...وقد انطلقت الثورة كعصيان مدني، ضد مرسوم فليب الثاني القاضي ب:

-عدم التسامح مع الثقافة الموريسكية .

وهي مراسيم جاحدة ، كان الهدف البعيد منها إبادة المتبقين من الأندلسيين بقشتالة الكاثوليكية ،من قبيل :

- عدم ارتداء الملابس العربية.
- التسمي بأسماء مسيحية.
- تعليم الأطفال على يدي قساوسة كاثوليك...

بويع القائد محمد وريثا شرعيا لمملكة بني أمية بالأندلس، وسرعان ما اجتمع حوله حوالي خمسة وعشرين ألف مناصر في العام المسيحي **1569**، منهم الكثير من البربر والأتراك...غير أن فليب الثاني سرعان ما وجه جيشه الرهيب إلى كهوف البشارات ، حيث اغتيل القائد محمد ، في مارس من العام **1571**م.بعدها أخمدت الثورة المسلحة بشكل نهائي ، وأعقبتها خطوات انتقامية قاسية :

- إخلاء مائتين وسبعين قرية من سكانها المورسكيين ، الماهرين في صناعة الحرير الطبيعي بالمملكة الأندلسية الفانية.
- تشتيت شمل ثمانين ألفا من المورسكيين من غرناطة في أنحاء الإمبراطورية الإسبانية المترامية الأطراف بأوربا والعالم الجديد.

هذا ما وصلنا من شهادات للمؤرخ الإسباني أورتادو دي مندوثا الذي عايش الثورة ، وألف كتابا أسماه:

" حــرب غرناطة ".

في صباح ذاك اليوم من ربيع **1575**للميلاد ، وبينما ابن شرف يقود دابته نحو إحدى القرى إذ فوجئ بجنديين إسبانين يتجهان نحوه :

-أنت موقوف بتهمة الهرطقة .

ثم تابع أحدهم:بأمر من جلالة الملك ستقدم للمحكمة قصد النظر في أمرك.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان وقع الخبر على ابن شرف كقطعة ثلج جمدت شرايين الدم في عروقه، لم لا وهــو يستحضر ذكرى أقاربه وباقي إخوته الذين أحرق بعضهم وهم أحياء من طرف محاكم التفتيش تلك...واليوم هاهو نفس المصير ينتظره.

والحق أن صدف القدر العجيبة وقفت مع ابن شرف هذا ، فحرفة الرجل جعلت منه عطارا ذا صيت واسع في كل نواحي غرناطة ، زادته شهرة أنواع تلك العطور المميزة التي يتاجر بها، لذا أضحى الاشبيلي يعرفه الصغير قبل الكبير ...وحتى زوجة القاضي ألخاندرودي بيريرا - والذي من المنتظر أن ينفذ الحكم على ابن شرف وأمثاله - كانت من الزبونات المعجبات بعطور ابن شرف،لذا تدخلت المرأة وكان" اسمها الكونديسا ماريا " لدى زوجها لتنشد الرحمة لتاجر العطور المسكين ،حتى وإن لم تستطع فعل أكثر من تعديل الحكم – النافذ مسبـــقا- تعديله من الحرق إلى الطرد..

وهما أمران أحلاهما مر.

وبعد عشرة أيام من إلقاء القبض عليه ،وإصدار المحكمة الاسبانية حكمها السريع القاضي بطرده من بلده،خرج ابن شرف وأسرته المكونة من ابنته شمس –الضحى، وزجته القوطية الأصل...أما ولديه فقد كتب لهما مسار مغاير تماما، فالسلطات الإسبانية لم تسمح لهمـــا بالخروج ،فقد كانت المملكة الكاثوليكية في حاجة إلى سواعد قوية تثبت وجودها الاستيطاني في مستعمرات الأيبيريين بالعالم الجديد "أمريكا".

لم يمهل الإسبان زوجة ابن شرف من إلقاء حتى النظرة الأخيرة على فلذة كبدها ، وأضحت تذرف دموع الفراق المرة.... فكما نفذ الحكم بالاخلاء بتلك السرعة ، ألحقت دورية الجنود أسرة الإشبيلي وثلاث أسر يهودية أخرى إلى ميناء قادش تمهيدا لترحيلهم خارج الأندلس:

- البلاد المحرمة على سكانها الأصليين.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

في المركب ذاته تكدس المورسكيون يهودا ومسلمين في قارب لأمير بحري تركي وضعه سلطان الأتراك مراد الثالث، رهن إشارة المرحلين من الجزيرة الأيبيرية .

وهي تجري بهم في موج كالجبال، تلاطم مياه البحر المتوسط العاتية، مبتعدة بأقصى سرعة ممكنة عن ضفاف الجحيم ،وقد بدا على زوجة ابن شرف مزيج من الصدمة والحنين لوطنها وولديها، والخوف من ظلمات البحر...وحينما بدت أصوات النساء وبعض الأطفال تتجاذب توجسا من البحر، إذ بريس البحر التركي يكسر حاجز الصمت ذاك:

-إن مولانا السلطان خليفة المسلمين يشبه هجرة الأندلسيين هاته كهجرة أوائل الصحابة إلى أرض الحبشة في صدر الدعوة المحمدية ..

رد ابن شرف وهو الاشبيلي المثقف المرهف الإحساس :

-وكأن التاريخ يعيد نفسه،فمعاناتنا مع القشتاليين تشبه إلى حد بعيد ذاك الظلم الذي مورس في حق المسلمين الأوائل، المستضعفين من طرف كفار مكة.

وفجأة تدخلت والدة شمس-الضحى،السيدة الفاضلة، وقد استفزتها المقارنة الدرامية ودفعتها لإخراج ما في صدرها من خوف واضطراب وأفكار ممزوجة بالحزن والصدمة:

-لكن المسلمين الأوائل وجدوا في الحبشة ملكا لا يضام عنده أحد...فهل نجد نحن نفس الترحاب لدى حكام المسلمين؟

أما شمويل العبراني المرحل مع جماعته ،فقد بدا عليه السكون ،وإن كان يدرك يقينا أن هذه الفترة العصيبة لا تستثني أندلسيي اسبانيا يهودا ومسلمين، فحتمية الترحيل لم تستثني أحدا، والعـنف المـــقدس المدعوم من الكنيسة الكاثوليكية جعلت ملوك قشتالة لا يفرقون بين أهل الديانتين..

قال شمويل:

-لقد سمعت من أحد أقاربي أن سلطان مراكش قد أعلن الجهاد لطرد البرتغاليين من الثغور الساحلية ،وبعد ذلك العبور إلى الأندلس.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أدرك ابن شرف المغزى من كلام شمويل وخاطب أمير السفينة:
"أفضل يا رايس أن تبحر بنا نحو تطاوين ، فهي قريبة من شفشاون التي حل بها العديد من الأندلسيين بعدما منحهم إياها سلطان الوطاسيين منذ سقوط غرناطة السليبة ، فاتخذوها مكانا لموطنهم الجديد ،والذي وصلني أنهم عملوا على محاكاة غرناطة في شكل عمارتها وقنوات مياهها حتى لا يشعروا بأي اختلاف ..ولو جزئيا .
ولم يكمل كلامه حتى أخرج صرة نقود كان قد دسها في صندوق صغير لم تطله أيادي جنود محاكم التفتيش حين خروجه من ميناء قادس ومدها لريس المركب ،قائلا له:
- استعن بهذا النزر القليل من النقود على شؤون البحر ، فإنكم تسدون خدمة للمسلمين الله وحده يملك حق الجزاء لعملكم .
طيلة ثلاثة أيام متواصلة بنهارها وليلها والمركب يمخر عباب البحر ..وما إن تراءت سواحل الشاطئ المغربي للمبحرين حتى حاصرتهم سفينة كرافيلا برتغالية مسلحة بمدافع وجنود.
حقا لقد أضحى البرتقيز أسياد البحر، وهاهم يراقبون جل الشواطئ المغربية من طنجة حتى سانتاكروز، منذ أن وطئت سفنهم ميناء سبتة ذات صيف من العام **1415** للميلاد.
لم يجد الريس التركي ومرافقيه بدا من المقاومة، فالموت أو الأسر ظهرا جليا لكل راكبي السفينة،غير أن الريس وأصدقائه لم يكونوا من اللذين يسلمون رقابهم لأعدائهم دون فعل شيء، وما هي إلا لحظات حتى اشتبك المركب مع المهاجمين و بدأ إطلاق النار من كل صوب واتجاه،وقد أظهر أمير السفينة ومعاونيه شجاعة لا توصف ،رغم عدم تكافئ ميزان القوة.
طوق المهاجمون المركب من كل اتجاه ،وبعد أقل من ساعة كان أمير السفينة وأحد رفاقه قد سقطوا قتلى، في حين أصيب الجانب الأيسر من المركب بأضرار بالغة ..أما أميرال البحر البرتغالي فأعلن استيلاءه على المركب وما فيه..
ووجد من بين الذين لقوا حتفهم زوجة ابن شرف ،وولدي شمويل، وركاب آخرون لا يعرف نسبهم بدقة..أما ابن شرف وشمس- الضحى وشمويل فقد وقف الحظ إلى جانبهم ولو إلى حين

،وإن كانت الفتاة الأندلسية قد أصيبت بجروح خفيفة في ساقها اليمنى نتيجة تطاير شظايا البارود .

أخذ الجميع أسرى وتم الاستيلاء على ممتلكاتهم، وأضرم المهاجمون النار فيما ما تبقى من المركب ..واقتيد الكل إلى أصيلا، ابن شرف وابنته وباقي الأسرة اليهودية كلهم مكبلي اليدين،بعدها تم احتجازهم في زنزانة قريبة من الحجرة التي احتجز فيها حمزة ورفاقه من أسرى القافلة.

وقد أدركوا جميعهم أن البرتغاليين ملكوا البحر واستأسدوا على البر..بل وتطاولوا على القوافل التجارية وأهل القرى والمداشر ،ولم تسلم منهم حتى السفن العابرة للبحر .

والحق أن غرفة الاحتجاز تلك، التي هي مخصصة لأسرى القافلة كانت أكثر برودة لقربها من الجهة الشمالية المواجهة للبحر،وازداد الأسر مرارة مع انتشار مرض معد بين صفوفهم والذي قضى على معظمهم في حدود مدة قصيرة لم تتجاوز الأسبوع ،الأمر الذي دفع بجنود السجن إلى انتشال الناجين منهم ،وقد كان حمزة من الناجين .

مرة أخرى تقف الأقدار الإلهية إلى جانب الفتى، وهاهو ينجو من موت محقق ..وإن أثر فيه الأسر وجعله ضعيف الجسم أكثر مما كان عليه،لكن عزيمته لم تفل ..وبعد التأكد من عدم إصابته بالعدوى، أدخل الشاب مع غرفة الأندلسيين ليقاسمهم نفس الحجرة،فأضحوا:

- متشابهون في المعاناة ..مختلفون في ظروف الأسر ، متساوون في التحمل والصبر.

إنك لتذكرني بولدي مسلمة يا...ما اسمك"

أجاب الفتى:

- اسمي حمزة يا سيدي.

- وما الذي دفع بك إلى السقوط في قبضة هؤلاء؟

- اختطفوني يا سيدي،وأنتم لا يبدو عليكم أنكم من أهل هذا البلد المختطف؟؟

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-أنا ابن شرف، وهذه ابنتي، وذاك صديقنا شمويل العبراني ،نحن من الأندلس ، تم أسرنا في عمق البحر.

على خجله وحشمته استرق حمزة نظرة في عيني شمس-الضحى ،متسائلا في قرارات نفسه عن سر هذا الجمال الممزوج بالحياء، فشمس تبدو في سن السادس عشر، بجمال عربي قح وعينين سوداوين، تتمان عن ذكاء متقد رغم المعاناة،أما حمزة فيكبرها بعامين ،ويصغرها بقضيتين، وإن بدا أنهما متشابهي المصير.

لم يكمل حمزة نظرته تلك إلى شمس-الضحى ، فقد دخل على السجناء أحد الجنود وسحب الفتاة إلى جناح مخصص للنساء هناك في إحدى زوايا القلعة.

-إلى أين تأخذون ابنتي ؟؟ (صاح ابن شرف بلغة إسبانية –والتي كان يتقنها)

أجابه الجندي بسخرية:

-إلى جناح النساء، لتخدم سيداتها نبيلات البرتغال..أو يقدم سلطانكم فدية في سبيل حريتها وحريتكم...(مكملا حديثة بقهقهة خبيثة).

كان مشهد نقل شمس-الضحى إلى جناح النساء أشبه بدق المسمار الأخير في حلق ابن شرف الإشبيلي ...إنها بالنسبة له آخر العقد المنثور المتبقي لهذا الأندلسي الذي كتب عليه وعلى باقي المورسكيين الشتات والمصائب كقطع الليل المتراكم. أما حمزة فلم ينبس ببنت شفة ، حينما أهينت الفتاة بتلك الطريقة ،بل اعترته روح الانتقام وتمنى لو تأتي تلك اللحظة التي يرى فيها هؤلاء البرتغاليين وقد احتضنهم باطن الأرض.

مرت أيام وأيام أمسك فيها ابن شرف عن الكلام ، مطلقا العنان للهموم والأحزان تعصف بقلبه ،لم لا، وهو المسكين الذي لم تأتيه المصائب إلا وهي مجتمعة ،وها قد غيب عن جفونه النوم ولم يعد للحياة عنده مذاق ولا طعم .

أما حمزة فلا تمر لحظة دون أن يتذكر أمه الصافية ..يتذكر حالها ..ويتمنى لو أنها لن تعرف أبدا بأسره ،ظل هكذا أياما وأياما.

وذات يوم التفت الفتى ليتفحص وجوه من يقاسمهم الحجرة الكئيبة ،حينما أطال فيه أحدهم النظـــر باستغراب ،وكان كهلا هزيلا ذو

شارب ولحية كثة ، وقد بدت عليه آثار القيود جراء الأسر الطويل الذي تعرض له.
ولم يلبث أن خاطب حمزة:
- في مكانك هذا الذي أنت فيه، كان قبل أشهر رجل تشبهه إلى حد بعيد.
- ما كان اسمه !
-العربي..اسمه العربي بن مي حليمة.
رد حمزة وقد باغته الخبر وبدت عليه علامات الدهشة وجزء من السرور، بعدما افتقد طعم الفرح منذ حادثة الأسر قبل شهور.
-وأين هو الآن؟ (سأل حمزة)
- وهل تربطك معه قرابة يا ابني؟
-إنه أبي الذي غاب عنا، حتى أني لا أذكر صورته،تحكي لي أمي أن أيادي الشر اختطفته أو ربما قتلته بدم بارد.
-أيكون حقا هو؟
-وأين يمكن أن يكون الآن يا سيدي؟
- لا نملك أي خبر يا بني،فالداخل لهذا السجن مفقود..والخارج منه – إن كتب له الخروج-مولود.
أطرق حمزة برهة وعلامات الدهشة والحسرة بادية عليه،هو يعي الآن تماما أن والده كان هنا ،أو على الأقل أنه عرف أخيرا أنه سيسلك نفس طريق أبيه العربي ولد مي حليمة.
مرت ليالي عصيبة على حمزة ورفاقه ، يجمعهما السجن وتفرقهما الأماني ،وإن كانت المعاناة والأحزان وفراق الأهل والأصدقاء سمة بالغة القسوة على كل أسرى المدينة.
وذات ليلة ممطرة من ليالي أبريل الباردة ، تسللت شمس-الضحى تحت ضوء القمر الخافت نحو زنزانة القلعة مستغلة احتفال نصارى المدينة بعيد الفصح الذي وافق **21** من نيسان ، ومع إفراط الحراس في الشرب ...وبخفتها المعهودة استلت سيفا كان بقرب أحد الحراس الذي يغط في نوم عميق، لتدخل الحجرة المظلمة مستعينة بفانوس قديم كان معلقا قرب باب الحجرة .

وبعد أن تبين لوالدها والفتى حمزة صورتها تبادل الكل ابتسامة حذرة ، بينما خفق قلب حمزة ، وكأن شيئا من ذكرى رؤيته لشمس في أول مرة قد راوده من جديد.

غير أن شمس-الضحى أشارت لهما بالصمت، وبضربة قوية حملت معها الخوف والرجاء، قطعت السلسلة الحديدية الملتفة حول حمزة ثم ناولته السيف فأكمل قطع السلسلة على يديه .وما إن اتجهت نحو والدها وقد عانقته بحرارة، و الدمع ينسكب من على خديها ،حتى أحست بحركة صادرة من الخارج، فأسرعت بالعودة مودعة حمزة ووالدها الذي أشار إليها بتعجيل الخروج، في حين تسلل حمزة متبعا خطاها وهو يودعها:

-شكرا شمس، سأعود قريبا لأخلصك، وأخلص والدك وربما والدي ....بل وكل أسرى المدينة ،أعدك عزيزتي ،ووعد الحر دين عليه.

ردت عليه شمس-الضحى وهي ترشده إلى المكان الآمن:

-اسمع:حكت لي إحدى الراهبات أن صومعة الكنيسة تحتوي على درج يؤدي بك إلى دهليز يوصلك مباشرة لخارج القلعة. وبالفعل هذا ما فعله حمزة، ولعل الحظ هاته المرة قد انحاز إلى جانبه في ليلة عيد الميلاد تلك..

فالميلاد بالنسبة لحمزة لا يعني بالضرورة رفع الصلبان، ومعاقرة الخمر، ورقص القيان...الميلاد بالنسبة لحمزة ميلاد الحياة من جديد ...حياة ستغير وجه تاريخ قريته" قرية الجبل" وبلده المغرب ككل.

كانت شمس –الضحى قد رفضت إلحاح حمزة بأن ترافقه في هروبه من ذاك الجحيم ،قائلة له:

-لا يمكنني أن أضحي بأبي ،فهو آخر ما تبقى لي .

وأسرعت عائدة إلى بيت سيدتها بينما عبر حمزة دهليز الكنيسة، إذ فاجأه راهب كان يتعبد فيها ..ولكون هذا الأخير لم يكن مسلحا، فقد أصدر صرخة لم يسمعه أحد ،لكنها لم تصل أبعد من باب الكنيسة، بعدما هوى عليه الفتى الغاضب بقطعة السلسلة التي كان بالأمس مقيدا بها.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

يا لسخرية الأقدار ..الأشياء التي تقيدنا زمنا ، قد تذيقنا معنى الحرية يوما ، فقط يتوجب علينا ساعتها أن نحسن استخدامها .

الفصـــل الثالث : بطـل يولد من الرماد

منـــــذ مدة دخلت الصافية في حالة حزن وخوف، فهي لا تعرف مصير زوجها العربي ولد مي حليمة الذي طواه النسيان عند أغلبية أهله، باستثناء زوجته التي مازالت تحتفظ ببارقة أمل عن عودته يوما ما..وزادها غما أنها لا تعرف شيئا عن ابنها الوحيد منذ سنين، حينما فارقها مع القافلة ،إن إحساس الأمومة يخبرها أن حمزة ما انقطعت أخباره إلا لسوء وقع له..

لكنها تطمئن نفسها بكون المسافة الطويلة التي تفصلها عنه، قد تجعل أخبار ابنها تنقطع مؤقتا،وما زاد الأمر تعقيدا هو غياب أي قافلة قد تقدم من فاس في اتجاه قرية الجبل موطنها ومستقرها.

.فمن أين ستأتيها أخبار ابنها !

استيقظت الصافية ذات صباح على رؤيا مفزعة أخافتها، بالقدر الذي لم تجد لها تفسيرا منطقيا ..فاستعانت بجارتها قائلة لها :

-رأيت في منامي كأن حمزة يجدف لوحده في قارب والحيتان تتعقبه لتغرقه...ونسيت شيئا كان يلمع فوق رأسه لكني أخاله تاجا مذهبا.

-تالله ، لقد أفزعني هذا الحلم ،بالشكل نفسه الذي أفرحني برؤية ابني ولو في المنام ،أجهشت الصافية بالبكاء، في حين انكبت جارتها تواسيها وتهدئ من روعها بقولها:

-لا عليك ...أفلست تذكرين كلام شيخ الجبل؟

إن قدر حمزة ليس في الحلم ..إنما هو في اجتياز هذا النهر ،ولعلني أؤول حلمك هذا بقرب تحقق الرؤيا.

ما أشبه اليوم بالأمس ،كانت تلك أولى ارتسامات حمزة على عودة الحرية له بعد قيود الأسر..لكنها حرية مقيدة بسلسلة الأحزان والذكريات..ذكرى أبيه العربي الذي سمع عنه ولم يره،تقاسما معا نفس حجرة الأسر دون أن يتقاسما نظرات اللقاء .

أيكون انفلت من الأسر ؟

أم أن قصة حياته مختزلة فقط في منفاه؟

أسئلة وأخرى حاصرت قلب حمزة وملكت كل جوارحه، وإن أسرع الخطى تحت جنح الظلام متسللا بين أشجار الغابة وضوء القمر

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الخافت ،تدق مسامعه بين الحين والآخر عويل لذئاب الجبل البعيدة ..وقد سدد خطاه نحو النهر .

-وشمس –الضحى،كيف أقنعت نفسي بتركها هناك؟

-أما كان علي أن آخذها معي ؟

- لكن ...إلى أين؟؟

الحق أنها هي التي آثرت البقاء قرب والدها الناجي الوحيد من أسرتها ،وذلك بعدما تسنت لها فرصة معانقة الحرية.وأنا الذي بعدما عانقت الحرية أكون قد ابتعدت عن رائحة أبي التي كانت تملأ أرجاء السجن ولو فقط في مخيلتي فيا لصبرها ،واستعجالي!

بينما جالت كل تلك الأفكار في بال حمزة مستحضرا كل ما حدث له ، انتابته لحظة ضعف وهو الشاب اليافع الذي عايش محنا تخر لها هامة الجبابرة من عظماء الرجال.لكن نفسية الفتى كانت قد تعودت على تقبل الصعاب،ومفارقة الأحباب.

ومع تباشير الصباح الأولى كان حمزة قد اجتاز النهر الفاصل، مخلفا ذكريات أسره تلاطمها مياه النهر المتدفق نحو المحيط.

"ذاك الـــنهر" أيكون هو المقصود بكلام شيخ الجبل سيدي الشريف؟؟وهو الذي خاطب بنبوءته الجدة مي حليمة ذات يوم:

إن في نهاية ذاك النـــهر قدر حمزة.

-أيكون القدر ...هو الأسر الذي قصده الشيخ الجليل في نبوءته تلك؟

-فهل يا ترى قد وصلت حياتي إلى منعطفها الأخير؟

هل لا بد من بطل يموت لتكبر الرؤيا؟؟

-إن كان هذا هو المقصود ..فسأتحدى قدري بنفسي ...فلعلي أن أعود يوما لعبور هذا النهر غير هارب من أعدائي ،بل كمحارب حتى نطردهم من أرض الأجداد ..وتراب البلاد.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان منظر رؤية النياشين الحمراء وهي تخالط رايات السعديين بمراكش تعبر عن معنى واحد:
*الأتراك بالمغرب.
هاته المرة بدا أن الذي أشرف على مواجهة المحتلين أمير قوي الشكيمة صائب الرأي قوي الإرادة ، خبر الحروب وعايشها ، وتنقل بين عدة أقطار ، عبد المالك السعدي الابن الثاني للسلطان محمد الشيخ الذي قيل أنه اغتيل من طرف الأتراك في العام **1557** للميلاد ، وبعد تولية عبد الله الغالب سلطانا ،فر أخواه عبد المالك وأحمد إلى الجزائر إلى حين وفاة الغالب في صيف العام **1574** للميلاد ، حيث رجع الأخوان إلى مراكش ، تماشيا مع تقاليد الحكم في الدولة السعدية ، والتي تنص على :
- تولية الحكم للشخص الأكبر سنا بعد وفاة السلطان.
وهذا العرف كان يمنح لعبد المالك السلطة ، غير أن محمد المتوكل بن عبد الله الغالب رفض ذالك واستولى على الحكم ، الأمر الذي جعل عبد المالك وأخاه أحمد يغادران فرارا من بطش ابن أخيهما نحو القسطنطينية .
رافقتهما في تلكم الرحلة المحفوفة بالمخاطر امرأة سيكون لها الفضل الكبير في تحول الأحداث لصالح عبد المالك فيما بعد ، إحدى أشهر نساء المغرب وأكثرهن تأثيرا ، ليست المرأة إلا أم الأميرين :
- سحابة الرحمانية.
سيدة حكيمة خبرت دهاليز القصور ، وتقلبات الدهر ، تملك قراءة جيدة لطموحات الملوك الجارفة ، اتخذت لها هدفا واضحا :
- مبايعة ابنها المعتصم سلطانا على المغرب.
وهكذا وصل الوفد إلى الأستانة العظيمة مقر السلطان العثماني "سليم الثاني" وكله أمل أن يعينهم الخان الكبير في مسعاهم لاسترجاع العرش المفقود.
وسرعان ما جرت الرياح بما اشتهت سفن عبد الملك، بعد أن قرر السلطان التركي إرسال حملة بحرية كبرى قوامها **283** سفينة

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

لطرد الإسبان من تونس،تحت قيادة الوزير سنان باشا والريس قلج علي . فانتدب عبد الملك لمرافقتها .

وقد انتصر الترك في المعركة الشهيرة :

-" حلق الوادي" في **12** سبتمبر من العام الميلادي **1574**.وطردوا الإسبان خارج المدينة القرطاجية العريقة ، وجهز الريس ثلاث مراكب بحرية لإبلاغ خبر النصر للخان.

لكن عبد المالك راهن على عامل المناورة ليكون صاحب السبق في إبلاغ السلطان بالنصر ، فقال لأصحابه :

" اخرجوا في هذه الفرقاطة إلى الأستانة واذهبوا بكتابي إلى أمي بدار السلطان، وادفعوه لها إن سبقتم المراكب الثلاثة ،وإن سبقتكم فلا تفعلوا".

وهكذا سارت الفرقاطة ليلا قبل سفر المراكب فوصلت قبلهم ، ودفع أصحابها كتاب عبد المالك إلى أمه سحابة ، فسارعت إلى السلطان الذي وجدته يراقب البحر منذ أيام وهو على تلك الحال ، فبشرته بالنصر ....هذا الذي أدهشه ، وكان سببا مباشرا في إصدار السلطان التركي لأمره بتجريد حملة عسكرية ترافق السيدة سحابة وولديها.

-هل قدمت الحامية التركية إلى المغرب فقط لتثبيت عبد المالك – الضيف السابق عندهم بالجزائر-على عرش أبيه المستحق؟

-أم أن للأتراك أهدافا أخرى؟؟

-أم جاؤوا بنوايا غير تلك التي قطعوها كوعود لعبد المالك المعتصم وأخيه الأمير أحمد؟

صفوة القول أن مساعدة الأتراك لسلطان السعديين كانت تحمل في طياتها استكمال آخر الفصول لمشروعهم الكبير:

"ضم كل شمال إفريقيا "

واتخاذ المغرب كقاعدة متقدمة موجهة نحو عدوهم اللدود الإسبان وبدرجة أقل البرتغال..

وقد أجمع المهتمون بالعلاقات الدولية المميزة للعصر الحديث أن الأتراك قد عجزوا- بشكل أو بآخر-عن السيطرة على المغرب

...فهذه حقيقة يدعمها التاريخ،لكن هذا لا يمنع من طرح العديد من الإشكالات ،ولعل من أهمها:

*هل كان للمغرب في تلك الفترة القوة الكافية التي تمكنه من وقف زحف الأتراك؟...إذا سلمنا أن هذا الجيش كان لوقت سابق قد حاصر قلب أوربا ووطئت خيوله سهول هنغاريا بل ووقف على أبواب فيينا –عروسة نهر الدانوب-،ولم يحل بين اقتحامها إلا غضب الطبيعة إذ أن قسوة شتاء النمسا قد صب في صالح أوربا مجتمعة.

مرة أخرى تتدخل الطبيعة موقفة تقدم هذا الجيش الجرار ولكن في منطقة أخرى ، وبصيغة مغايرة ،ففي العام **1554**م اجتاز الأتراك الحدود الشرقي للمغرب ،متجهين نحو فاس ،غير أن وباء الطاعون كان أسرع من أعتى عرباتهم ، فاتكا بمعظم ساكنة فاس والقرى المجاورة لها ..الأمر الذي أرعب قادة جيش الأتراك و فضلوا العودة إلى قواعدهم بتلمسان.

وهكذا وقفت الطبيعة حائلا من جديد دون استكمال الأتراك لحلقة كماشتهم على العالم المحيط بهم ...وهاهم الآن في صيف **1576**م يعودون إلى المغرب كحامية عسكرية مساعدة لعبد المالك في استعادة عرشه المسلوب –حسب تصوره-من طرف ابن أخيه المتوكل.

تسارعت الأحداث بعد وصول عبد المالك وأحمد إلى مراكش وبرفقتهم خيرة الفرسان الترك..وبذلك أجمع الكل على مبايعة عبد المالك سلطانا للجهاد بعد فرار ابن أخيه المتوكل .وهكذا نصب أحد الأخوين على عرش المغرب ،ذاك البلد المفصول عن سواحله الأطلسية والمتوسطية، بوجود جل مدنه تحت الاحتلال الأيبيري.

كانت السنتين اللتين أعقبتا **1576**م حاسمتين في الصراع حول العرش ،إذ انتهت فصولهما بقصة درامية:

- لن يغفرها الوطن..
- حتى وإن طواها الزمن..

فالمفترس لم يكتف بما جنته أيديه على أهالي المغرب،بل إن طموح ملكه الشاب دون سيباستيان أوصلته إلى حد الغرور...بل

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

حتى السعي نحو ضم المغرب بشكل تام وتحويل أهله إلى النصرانية بمباركة من بابا روما بعدما قدم المتوكل –في سبيل استرجاع عرشه- مدينة العرائش المنيعة ، كهدية للبرتغاليين مقابل حصوله على "وعد زائف" قصد استرداد سلطته المفقودة وعرشه الضائع.

ولم يكن دون سيباستيان وهو بكل تلك الحماسة التي تغذيها قيادته للعالم الكاثوليكي أن يفوت فرصة ذهبية مثل تلك التي قدمها له المتوكل،فالمدينة ولوقوعها في مصب نهر اللوكوس الخصيب كانت مطمح الإسبان والبرتغاليين وحتى الأتراك ، غير أن استماتة ملك الدولة السابق الوطاسية محمد البرتقالي، جعل العديد من الحملات العسكرية التي تغيت احتلالها ، تنهار أمام أسوارها العتيدة .

ومع تقدم البرتغاليين نحو مشروعهم الجاهز لغزو المغرب، كان حمزة يخطو خطواته نحو قريته بعدما ظل متخفيا كل تلك المدة حاملا معه ذكريات أسره،وريح العربي أبيه، وعطر شمس-الضحى معشوقته.

والحق يقال أن الفتى لم يهرب من الأسر عن جبن من أعدائه، بل برغبة جامحة اعترته وجعلته يحمل على عاتقه المساعدة في هزم هذا الوحش القادم من البحار والذي لم يترك لقريته وأهاليها إلا الدمار.

ولذلك نجده يحرص كل الحرص على تجنب كل الحاميات البرتغالية المرابطة بضواحي أصيلا والسهول المحيطة بها-والتي هجرها الأهالي- ملتجئين نحو أعالي الجبال،حيث قرية الجبل التي شهدت الخطوات الأولى لحمزة..حمزة الذي ظل ولمدة ثلاثة أيام متتالية يسير نحو قريته كتلك الطيور المهاجرة السرمدية، إذ يتخفى بالنهار ويتحرك بالليل، معتمدا على ضوء القمر،ولسان حاله يقول:

يـــا ظلام الليل خيم **إنا نهوى الظلامـا
وما بعد ليل حالك *** إلا بريق فجر يتسامـى

وفي أثناء طريقه عثر حمزة على بقايا سيوف ورماح وأقواس مكسرة ،وآثار لدماء لم تبتلعها الأرض وتلك هي عادتها مع بني آدم.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

يا للسخرية:
-الأرض لا تشرب الدماء !
-بينما الإنسان يقبل على دم أخيه بسخاء !!
أخذ حمزة ما هو في حاجة إليه من بقايا تلك المعركة قوس وسيف لازالا يصلحان لأغراض الحياة اليومية ...وقد ساعده القوس في القنص لتموين قوته حتى يبلغ مأمنه ووجهته "قرية الجبل".
وفي اليوم التالي، ومع طلوع شمس الصباح أبصر حمزة ذلك الجبل الشامخ الذي تسلقه في صباه مع جدته ..آه.آه، أو يكون سيدي الشريف ما يزال على قيد الحياة؟؟
لكم أتمنى ذلك..
جالت بخيال حمزة تلك التخمينات بينما اعتلته فرحة خفية ككل إنسان اقترب من معانقة أمه والتي اشتاق لها أيما اشتياق.
"لكن لا بد لي من زيارة سيدي الشريف قبل أن أعرج على منزلي فهو في طريقي وزيارته واجبة علي ،لقد أهداني اللوحة التي فقدتها بعد أسري من طرف نصارى المدينة.
وما إن تسلق حمزة سفح الجبل نحو الأعلى حيث مسكن سيدي الشريف، حتى بدا له تغير جذري في ذاك "الحوش" الذي كان مقرا لمأوى شريف الجبل، فقد أضيفت له بنايات أخرى إلى جانبه، فأسرع الفتى الخطى مستغربا ما تبصره عيناه، ولا يصدقه قلبه..
-أو يكون سيدي الشريف قد اغتنى بالشكل الذي جعله يوسع مسكنه مضيفا إليه جمالا إضافيا !!
-وكيف يحدث ذلك ! وسيدي الشريف ومنذ عرفناه إنسانا زاهدا في الدنيا وزخارفها...لا، لا، لن أستبق الأحداث،ثم توقف حمزة :
-إني أرى جمعا منهم رجال ونساء يحيطون بالقبب ...رباه لقد اختلط علي الحابل بالنابل.
وبينما يستعد حمزة لدخول "الحوش" إذ به يبصر عجوزا طاعنة في السن، قد انحنى ظهرها قليلا مرتدية حايكا أبيضا يتخلله إزار مزركش الألوان كذاك الذي ترتدينه نساء أهل الشمال ..كانت العجوز جالسة القرفصاء وتمسك بشاهد قبر وحيد، بينما تتهمك من

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

حين لآخر في صب الحناء على القبر ومتمتمة بكلام غير مفهوم إلا من كلمات الله .
-آ سيدي الشريف الغالي،أزل البأس على حالي ...يا ساكن أعلى الجبل ،أحيي ما تبقى لي من أمل ..
نظر إليها حمزة مندهشا ومستغربا مما يرى ،ثم سرعان ما حول بصره في الجهة المقابلة التي نبتت فيها شجرة سدر، أرخت بفروعها ظلا على القبر وقد علقت عليها عشرات الأثواب ذات اللون الأخضر الناصع.
وتساءل حمزة:
-رباه !! متى ستزول عادات الجاهلية الأولى تلك، من عقلية نساء ورجال قريتي ؟
-أو لم يأت رسولنا الكريم ليقضي على تلك الوساطة التي يتوهم الناس أنها تقرب إلى الله زلفى؟؟
-ومهما بلغت مكانة صاحب القبر ، فقد نهينا أن نجعل من قبره قبة تزار.
كان حمزة يخاطب نفسه بهذه الأسئلة الاستنكارية، ولكم تمنى أن تكون العجوز قد تجردت من جاهليتها .
ثم خطى نحوها خطوتين متأدبتين وسألها بلطف:
-خالتي: قبر من هذا؟ هذا الذي تخاطبين؟؟
-قبر سيدي الشريف يا ولدي...غادرنا دون سابق إنذار ،ثم أطلقت العنان لدمعة جافة على خدها المتجعد بسنين من المعاناة،وعقود من الانتكاسات.
لم يصدق حمزة أول الأمر ، بدا وكأنه يواسي نفسه عن طريق توجيه سؤال مباشر إلى العجوز:
-ومتى وقع ذلك يا أماه؟؟
-أظنك يا بني غريبا عن هاته القرية وأهلها حتى تسألني سؤالا كهذا،ففي قرية الجبل لا أحد ينسى ذكرى ذلك اليوم الذي انطفأت فيه تلك الشمعة الوحيدة المضيئة على قريتنا المنسية ...غادرنا من كنا نأتم بقوله ونستأنس بدعائه.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

عرف حمزة أن شيخ الجبل قد فارق هذه الدنيا منذ سبع سنين خلت،وعلى الرغم من تقادم السنين إلا أنه مازال يعيش بين أهالي القرية بشكل أو بآخر....فأن تنصب له القباب ،ويرده الناس شيوخا وشباب ،يعني أنهم لا زالوا يعتقدون أن فناء جسده لا يعني توقف سلطة دعائه.

هكذا يموت الأولياء، ليحكمونا من قبورهم،وسيدي الشريف لم ولن يكون الاستثناء،هي أمة العرب تلك ،أمة عبدت الحجر منذ العرب البائدة من عاد وثمود،وقدست الأيكة والشجر عهد نجد وقريش وجوار الأخدود..وهاهي قرية الجبل تربط طقوس الماضي الغابر بشيء من وثنية الحاضر ،لتبرهن-عن طريق تقديس أوليائها- أنه مازال للحجر مكانة خاصة حينما يكون محتضنا لعظام سادة وشرفاء وأولياء اعتقد خطأ أنهم أهل للخلود.

هذه الحقائق التوحيدية راودت بال حمزة وهو يحاور العجوز الزائرة ..لكنه هو نفسه عد من الزائرين ، وإن كانت الغايات قد تناقضت في هاته الحالة ،فحمزة كان يمني نفسه أن يلتقي شيخه على قيد الحياة فهو لا زال يسعى للحصول على إجابة عن تلك النبوءة المحيرة التي لم تفارق أذنيه:

إن في نهاية هذا النهر قدر حمزة.

أتكون آخر فصول هذه المقولة هي تلك التي عاشها الفتى حينما عبر النهر فارا من سجون نصارى البرتغال؟

إن كان هذا صحيحا فقدري هو العودة إلى قريتي لمهمة وحيدة:

- المساعدة في طرد هؤلاء النصارى ..

- رباه ! أيكون الفصل الآخر من كشف سر قولة سيدي الشريف قد دفنت معه حينما كتب عليه الرحيل؟

-ماذا لو كانت تتمة الرواية عند أحد ما؟..قد تكون إشارة ،أو وصية همس بها شريف الجبل عند أحدهم في القرية، على الحظ أن يكون مطلقا حتى يقف هكذا إلى جانبي .

ودع حمزة العجوز داعيا للشيخ الراحل بالرحمة والمغفرة ،ومستنكرا في الوقت نفسه ما رأته عيناه من أعمال شركية عند جنبات القبر، والذي تحول إلى مزار يقصده كل من شعر برغبة

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

جامحة في الحصول على دعاء سريع الإجابة،وكأن الإجابة الربانية لا يكتب لها النجاح، إلا وسط قبور الموتى ؟
وقد أسرع الخطى مستجيبا لنداء قلبه الذي هو في أشد الاشتياق للقاء أمه الصافية، فقد مرت سنين طوال دون أن يراها أو حتى يشتم رائحتها .
-لكم أتمنى أن تكوني بأفضل حال يا أماه ،أنت أملي الوحيد المتبقي بعدما تساقط جل أهلي كأوراق الخريف الصفراء.
كان لسان حمزة يقول :
"لا تعتذر في هذه الحياة، إلا لأمك"
كيف لا ،وهو الذي لم يبصرها مدة سنين ،وما يدري في غيابه وغياب أبيه العربي ولد مي حليمة ما الذي حصل لها؟..وإن كان نداء القلب يهمس به أنها ما تزال على قيد الحياة.
مسرعا الخطى قاصدا منزلهم القديم ، نزل حمزة من أعلى الجبل ،وحين أبصر شجرة الزيتون التي تتوسط حقلهم الصغير ،أحس بثقل السنين تطارده، وتذكره بصباه الذي قضى شطره هناك ،حينما شعر ذات يوم أنه حقق شيئا عظيما حينما تمكن من صعود تلك الشجرة التي كان يبدو له مستحيلا صعودها ،الأمر الذي أثار ضحك أمه وهي تشجعه على الصعود وقطف ثمرات الزيتون مع التحذير من خطر السقوط طبعا.
كان ذاك ما جعل حمزة يطيل النظر في الشجرة التي اعتلتها آثار الاصفرار ، لغياب الاهتمام الذي كانت تتلقاه من ذاك الغائب منذ زمن .
ما أروع الماضي الممزوج بعالم الطفولة البريئة ،فأحيانا يذكرنا المكان بمن فارقونا منذ زمان .

-لقد اختارت أمك الرحيل يا حمزة.
ونزلت هذه الكلمات كقطعة ثلج جمدت الدم في عروق الفتى الجبلي ،معطلة ذهنه وفكره للحظات ...وحينما أدركت الغالية وقع الصدمة على ابن جارتها ،قالت:

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

- حينما توقفت أخبارك عنها ،قررت أن تسافر نحو فاس للبحث عنك،ومن هناك انقطعت أخبارها عنا ...ثم استسلمت هي نفسها للبكاء ،فعانقها حمزة وبكيا معا بحرقة أكبر،بكى حمزة بحرقة رضيع غالبه النوم ..

أما الغالية فقد أرادت أن تحول بينه وبين اليأس الذي بدا من عينيه، أنه يتسرب نحوه بعد الخبر الصاعق:

-قم يا بني،لا تيأس من روح الله ،ثم سردت عليه قصة نبي الله يعقوب في محنته لإيجاد ابنه يوسف. - اذهب وابحث عن أمك وأبيك .

- تسلح بالأمل فهو يكفيك.

- فلا أمل لهم يا بني إلا أنت.

- غادر بأقصى سرعة ما استطعت..

عند المغيب كانت السماء قد أمطرت، والرياح قد اشتدت فقدمت، الغالية له خبزا وحساء ساخنا من الشعير والحليب ،ثم زودته بغطاء ثقيل ..وهاهو حمزة ينام أخيرا في بيت والديه ،لكنه أحس إحساسا لم يراوده من قبل .فقد شعر أن ليل قريته أضحى ثقيلا جدا وبيته بدون أمه كجسد بلا روح.

ومع تباشر الفجر الأولى أطلق فقيه القرية نداء الصلاة، استيقظ حمزة ليصلي الصبح جماعة واضعا فكرة الرحيل للبحث عن أمه نصب عينيه ، وقد أدركت الغالية عزمه فودعته وأوصته بأخذ الحيطة والحذر من الطريق فما تزال خطرة ، معرضة دوما مرتاديها للوحش القادم من خلف النهر.

ذاك النهر ...لماذا لا يفارق ثقل هذه الكلمة مفكرة حمزة؟

لعلها قولة شيخ الجبل الموقوفة التنفيذ ولو إلى حين...لقد صارت كنبوءة تثير في نفسية الفتى شجاعة وهمة وعزم، قصد تحقيق هدفه المنشود:

- المساعدة في طرد نصارى البرتغال خارج الديار..وإنه لحلم تشد إليه الرحال.

ولعل ذاك ما استعجله حمزة، وهاهو يغادر وحيدا نحو فاس.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان شتاء**1577** للميلاد ،قاسيا على حمزة بعد رحيله عن قرية الجبل متبعا ريح أمه ،مفضلا طريقا غير معروف لدى العامة حتى يتجنب مصائب الطريق –والتي لفرط عجائبها معه-قد أكسبته التريث وأخذ أقصى درجات الانتباه...وأناة القط قبل وثبة الأسد .
فهل سيجد الفتى ضالته هناك في فاس؟؟

ابتعدنا عن مجال قرية الجبل والنهر المخترق لها، ومنطقة سطوة نصارى المدينة، واتجهنا جنوبا نحو هضاب سايس الخضراء حيث تقبع مدينة المولى إدريس باسطة جناحيها على تلالها المنخفضة من كل الجوانب ، تغطيها غابات مليئة بالأشجار ، حولها أراضي صالحة للزراعة على مد البصر ، تكثر فيها البساتين وأشجار الزيتون، وأزهار الياسمين.

يتراءى من خلف التلال، وادي فاس الذي تتفرع من ألف قناة ، هاته القنوات المتراصة التي تسقي الحقول وتنشر الخضرة حيثما حلت ...تلك المدينة الإدريسية التي تختبئ عند أقدام جبال الأطلس ، تزينها الغيوم والسماء الصافية في كثير من الأحيان ،تتراءى لزائرها مشاهد قلاعها المنتصبة فوق مرتفعاتها ..مدينة كتب لها أن ترتبط بحياة الهروب ، ذاك الهروب الذي نجا بفضله إدريس الأكبر من كماشة أبناء عمومته بني العباس التي انطبقت على حفدة علي في واقعة فخ الشهيرة .

ورغم أن أنصار الرشيد لم يتركوا إدريس هذا يعمل على فصل المغرب الأقصى عن بغداد بعدما استطاعوا أن يخنقوا أنفاسه بسم الشماخ القاتل، إلا أن البذرة التي تركها مؤسس الأدارسة في رحم فتاة أوربة الأمازيغية السيدة كنزة ، هي التي ستعلن قيام فاس أول عاصمة للدول المستقلة عن الشرق ..كان ذلك على ما ترويه كتب التاريخ في العام الهجري **182**والذي يوافق العام المسيحي **809**، حتى وإن اختلفت تلك الكتب في أصل الاسم ومعناه وهذا حال الكثير من المدن التي تأرجح اسمها ما بين الحكايات الأسطورية أو اقتران أسمائها بأسماء أماكن جاورت موضعها الذي خطت عليه للمرة الأولى .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

فاس وكأنها مطبقة على ساكنيها بقبضة حديدية يصعب على أحدهم مفارقة جناحها الدافئ تحت أي عذر كان..حتى قال أحد التجار الشنقيطيين ذات يوم وقد زار المدينة للتجارة :
"إن فاس تدفن فيها أهلها وهم أحياء في بيوتهم ،وحين موتهم تدعو الكل لزيارتهم ".
ولعل هذا التاجر أدرك – كما غيره من الغرباء - مدى تجاور الدور للقبور .. فمقابر فاس تنتشر على نطاق واسع على حدود أحياء المدينة ، بل حتى داخل أسوارها المحصنة .
وحمزة سار – لكثرة ما فقد من أقارب - يتجنب مشاهدة القبور، لذا أسرع الخطى مطأطأ رأسه إلى أسفل،ولم يكد يشرف من أعلى التلال على فاس حتى أبصر قلعة المدينة وقد زينت برايات وأعلام غير تلك التي عهدها في قرية الجبل حينما كان يزورهم مبعوث السلطان لفترات متباعدة،ومرة أخرى وقف حمزة يساءل نفسه:
-أيكون مولانا السلطان قد غير ألوان راياته؟؟
-وإن كان قد فعل ،ما الذي دفعه إلى ذلك؟؟
-....رباه ! أيعقل أن تكون الرايات تلك للعدو؟
-أيكون حقا قد استولى على "فاس" ذرة المدن وتاج البلدان؟؟
-....لا .لا ..إلا فاس ،ولو قدر الله هذا لأصبح مصيرنا كمصير الأندلس ..وما رأيته من حال ابن شرف وشمس-الضحى وهما يحملان في ذاكرتهما وطنا يسير بخطى حثيثة نحو العدم..أهالي حضارة مسجونون عند جلادهم وفي بلاد ظنوا وهم على شدة يأسهم، أنها المكان المناسب لأمنهم.
"ما أغرب أقدارك أيتها الحياة ليت لي القوة الكافية لأحررك يا شمس.."
شمس التي اختار لها أبوها هذا الرمز قبل أن يكون اسما، لكي تسطع على بلاد خط لها القدر جغرافية على خط التماس .رقعة بين حضارتين تسعى كل واحدة منهما أن تلتهم الأخرى دون أن تترك أثرا لمعالم الضحية ..
كان حمزة وهو يحاول إيجاد تفسير لما شاهدته عيناه ،إذ بأذنيه تلتقطان صوتا مألوفا من بعيد "الله أكبر "قادمة من إحدى مآذن

المدينة –التي خشي على سقوطها في يد أعدائه أكثر من خشيته على نفسه، لما تمثله من قداسة في فكر مغاربة تلك الفترة.

- حمدا لله ..أظن أن المدينة بخير ،وحتى وإن كانت رايات الحكم قد تغيرت ،فما زال صوت الآذان يصدح في جو السماء، يلبس الحاضرة هويتها التي هي عليها منذ قرون خلت .

أو ليس قديما قيل: متى ارتفع صوت الآذان..فبلاد المسلمين بأمان.

علي فقط أن أسرع الخطى فلعل الله يجمعني بأمي ..

- أتكون حقا هنا بفاس؟

-عليها أن تكون هنا ..فهذا ما أخبرتني به جارتناالغالية.

- يا لسخرية الأقدار !!قدمت بعد الأسر أبحث عنها في قريتنا ،ولم أكن أدري أنها هي من تبحث عني في فاس..فكم أرجو ألا تنتقل إلى مكان آخر....فنحن عائلة كتب علينا الفراق حتى داخل وطننا .

ما إن وصل حمزة لحقول الزيتون المحاذية للقلعة حتى أبصر الرايات عليها ،ثم لمح صاحب الحقل يقوم بسقي ثماره فاقترب منه مبادرا بالكلام:

-السلام عليكم.

-قل لي يا عم:ما شأن تلك الرايات البيض ..هناك؟

-أظنك غريب يا بني،ولم تعلم بقدوم شريف تامغروت إلى هنا .

- ومن هو مولانا الجديد يا عم؟

-هو المولى "أحمد" الشريف الذي برهن على بزوغ عهد ليس كسابقه ،بعد أن رفع راية الجهاد التي خبت لعقود.

-لكم أرجوا أن يكون كلامك ينطق حقا عن نفسية سلطاننا،أو سيكون كسابقيه ...يتخذون من هاته الكلمة الرنانة ليقضوا بها مآرب شتى..

-ما أشد جرأتك يا ولدي..أفلا تعلم أنك قد تكون محدثا أحد مؤيدي من انتقدتهم دون أن تدري؟؟(أتبع الفلاح كلامه بقهقهة مسموعة ..دون أن تتجاوز حد الأدب)

رد حمزة: مبادلا له نفس القهقهة:

- لا أظن ذلك يا عم..فقد تفحصت فيك حماس الشباب وأنت تتحدث عن الوضع الجديد.

-هي فراسة مؤمن شاب إذن، قال الفلاح...والذي عرض على حمزة الجلوس تحت إحدى شجيرات الزيتون لأخذ قسط من الراحة.
شكره حمزة بلباقته المعهودة معتذرا بضيق الوقت لديه .
- أستسمحك يا عم، وجزاك الله كل الخير ..
وانطلق حمزة ليروي عطشه المعرفي ،فالحقيقة لم تتجل أمامه بكل حلتها ..في الأخير ما ذا يهم الفتى من تغير الملوك أو حتى الدول، ما دامت قريته مهددة تلقائيا بهجمات نصارى البرتغال، والمدن الساحلية جلها أسلمت روحها للمحتل الأجنبي ..
لكنه وهو يقترب من القلعة لاحظ الحراسة المشددة عليها..أحاط بها الجنود إحاطة السوار بالمعصم ،كما أبصر وهو يدقق النظر جنودا يتدربون بهمة عالية ،وكأنهم يستعدون لمعركة في صباح الغد..
أعجب حمزة ما رأى ولكم تمنى أن يحول هؤلاء سواعدهم وقوتهم لتحرير قريته، وباقي الساحل المغتصب أهلا وأرضا.
ومع مغيب الشمس كان حمزة قد طرق أبواب القرويين بفرسه الذي استعاره من جارته الغالية، فقد شكلت المنارة العلمية هدفه ووصية أمه الأولى التي تمنت ذات يوم أن يرتوي ابنها من علومها ومعارفها ..لذا اعتبرها أولى المحطات التي سيتخذها للبحث عن والدته..
- لكن كيف؟
اتجه إلى ضريح المولى إدريس للصلاة أولا ، ثم المبيت ثانيا ،وهو يدرك أن هذا الركن طالما شكل مكانا للمأوى يقصده الغرباء عن هاته المدينة ..لكن حمزة وهو الغريب في وطنه ،الحامل لهموم أهل بلده، لا يمكنه أن يطيل ، فقد قضى هناك ليلته تلك ،وبعد الفجر عاد إلى القرويين حيث قصد السيدة المشرفة على الجناح المخصص للنساء ، تلك المرأة الوقورة المتشحة بالبياض والتي تغنيها الإشارة عن كثرة الكلام، متكئة دوما على عصا اتخذتها وسيلة مساعدة، وأحيانا وسيلة تأديب للمشاغبين من الصبية.
هذه المرة بدا وكأن حمزة يكاد ينطبق عليه ذاك المثل:"كمن يبحث عن إبرة في كومة قش"

كيف له أن يسأل العريفة عن أمه وهي تمر بها يوميا عشرات النسوة ..لكن حدسه يقول:
-ربما أمي قد قصدت القرويين معتقدة أنها ستكون وجهتي النهائية .

*وكيف لي يا بني أن أتذكر أمك في خضم هذا الكم الهائل من الوجوه؟؟كان هذا هو الجواب الذي تلقاه الفتى بعدما سأل المرأة المتشحة بالبياض عن والدته...
اسودت الدنيا في وجه حمزة،بدا وكأنه ارتطم بتلك الصخرة الحادة التي توقف الطموح بعدما يرفع الإنسان عينيه عن أهدافه.
الاستسلام للأقدار حالة قد تصيب كل إنسان لم يستطع بشكل أو بآخر رؤية بصيص من الأمل بلونه الوردي،والذي للأسف لا يمكن لليائسين رؤيته ، فهم في هاته الحالة أناس أصيبوا في لحظة انهيار بعمى الألوان.
أو ينطبق هذا على الفتى حمزة؟...وهو الذي لقي في مشوار حياته كل تلك العقبات الكئود ...وسحبا سوداء أمطرت عليه وابلا من المعاناة :
- فقدانه لوالده العربي ولد مي حليمة وهو ما يزال في بطن أمه .
- مغادرة تلك التي كانت رمزا للحنان... جدته
- فقضبان الأسر التي نالت من رحلته نحو العلم، وحولتها إلى رحلة نحو نار جهنم.
- والآن لا أثر لأمه الصافية.
ترى أين خبأها عليه هذا القدر الجبار؟؟
-...لا ، لن أقف في منتصف الطريق حتى ولو لم أجد أمي لحد الآن، فإن وجهتي ستكون تلك القلعة الماثلة من بعيد أمام ناظري، .لعلني أعثر فيها على ما أبتغيه .
يبدو وكأن فاس قد لبست كلها ثياب الحرب؟...جل السواعد القادرة على حمل السلاح إما تجمعت داخل القلعة أو تجمهرت على شكل جماعات خارج أسوارها.
عند ذاك، اختلط حمزة بين الحشود محاولا معرفة ما يقع ..سائلا عن تلك القوة الخفية التي حركت فجأة المغاربة للجهاد ضد الغزو

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الأيبيري....بعدما ظل هؤلاء الإسبان والبرتغال قابعين بأمان في حصونهم التي أقاموها هناك على جل الثغور الساحلية للأطلسي والمتوسط على حد السواء..كل ذاك في (لحظة لا توازن) ..بين الضفتين .حينها وجد سكان المغرب أنفسهم مهددين في أموالهم وحياتهم، بل وحتى مصيرهم –كما هو حال قرية الجبل حيث موطن الفتى-.لم يتأخر الجواب كثيرا عن حمزة ،فبعد أيام أكدت له الأخبار ما يسره ..كل ذاك تم بعد سماعه لحوار قصير دار بقربه بين رجلين كانا يتحاوران بجانبه:

*وكيف سيطارد مولانا أحمد الشريف ابن أخيه المتوكل؟؟

أجابه الآخر:

- يبدو لي أن ذلك الخائن يتجه للاستنجاد بأعداء الدين والوطن.

وتساءل حمزة في قرارات نفسه:

-هل يمكن لأم أن تنتزع من ابنها قطعة من جسده وتمنحها لعدوها، بينما تكتفي هي بالنظر ...والصمت الطويل؟

ذاك هو التشبيه الذي تمثل في بال حمزة بعدما سمع أخبارا أخرى عن تسليم المتوكل للبرتغاليين "ثغر العرائش" كما وعدهم بكل الشواطئ حال نصرتهم له في استرداد عرشه المسلوب..عبر ذاك الوعد الزائف ، سينتظر المتوكل متلهفا أعداء وطنه ليتصدقوا عليه بما هو في الأصل ملك له.

- أهكذا يصل سحر الملك العضوض إلى هذا الحد؟؟

إلى الحد الذي يفقد فيه المتوهم بالحكم كل معايير التمييز السليم.

حقا هذا جزاءنا نحن الذين بايعناه سلطانا ،والذي سلمنا في أول فرصة إلى هؤلاء المحتلين.. كان هذا لسان حال أهل فاس حينما يتذكرون فعل المتوكل الشنيع،على أن الخبر ساهم إلى حد بعيد في إجماع الرأي واتفاق القلوب على ضرورة الالتفاف حول الأمير أحمد الشريف وهو العازم – تحت إمرة أخيه عبد المالك- على خوض معركة فاصلة ضد أعدائهم، ومن ثمة استئصال هذا الوباء، من أرض الشرفاء.

اقترب حمزة نحو الحوار الدائر بين جنود المولى أحمد ، حيث قال أحدهم:

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-لقد أخبرنا أحد حرس المولى أحمد أن هذا الأخير يترقب قدوم أخيه من مراكش.

رد عليه آخر:

- ترى هل ستعود فاس عاصمة الدولة من جديد، حالما يصلها الخليفة؟

تدخل شيخ كبير في الحوار الدائر:

-لا أظن ذالك، ففاس هذه المرة ستكون القاعدة التي سيجتمع فيها جيش الخليفة مع جيش نائبه المولى أحمد.

لم يستطع حمزة أن يكتم غبطته من تلكم الأخبار التي أثلجت صدره ، تمنى لو يشارك في الحديث الدائر ، لو يدلي برأيه عن طبيعة الصراع بين نصارى المدينة وأهل قريته ، وباقي القرى ، لكنه خشي من أن يفهم على أن كلامه من قبيل التطاول والتدخل فيما لا يعنيه ، لذا آثر السكوت موجها نظراته إلى المحاورين الذين تفطن أحدهم للشاب وأيقن أنه يريد أن يدلوا بدلوه في أطراف الحديث الدائر بقربه ، فقال الشيخ :

- لعلك تريد أن تقول شيئا يا بني ؟ فتكلم ولا تخشى شيئا ، فنحن في حاجة لكل خبر قد يفيدنا في النصر على عدونا .

فما كان من حمزة إلا أن أخرج ما في جعبته قائلا :

- أيها الجنود الشجعان: ما فائدة اجتماع جيوشنا بفاس ،إن كانت جل ثغورنا لم تعد في ملكيتنا؟

- هذا هو مربط الفرس يا ولدي...كان هذا رد الشيخ المسن على سؤال حمزة المشحون بالقلق والتوجس، وهو بسؤاله ذاك قد جعل الأعناق تتوجه إليه وإلى عينيه المتقدتان بالحماسة.

قال الشيخ:

-ومن أخبرك يا بني أن جل ثغورنا قد وقعت في يدي العدو؟؟ ثم ربت على كتف الفتى وابتسم.

قال حمزة:

-يا عم..إن مسقط رأسي هي بين فكي هذا المفترس.

-كيف؟؟ تساءل الشيخ، والجنديان.

فما كان من حمزة إلا أن قص عليهم خبره وخبر قرية "أهل الجبل" مع نصارى المدينة ومعاناتهم التي تكاد لا تنتهي،إلا ما كان من أمر أمه الصافية فقد فضل الاحتفاظ بقصتها،وتظل في طي الكتمان إلى أن يحين الوقت.

-ألهذا الحد استفرد هؤلاء النصارى بأرضنا وبلادنا؟

أجاب حمزة:

- أجل يا عم ، بل إن أصيلا أضحت تعج بمورسكيي الأندلس بعد خروجهم من بلادهم نحو البحر ومعظمهم الآن أسرى وخدم.

خاطب الشيخ الفتى المندفع ، بعدما تأكد من فطنته وحسن نباهته:

- اجلس يا ولدي أولا، ثم بعدها سأعمل على ضرب موعد لك مع الأمير فهو في حاجة إلى أخبار مثل هذه، وإلى سواعد مثل التي تملك.لم يفصح الشيخ عن هويته ، لكن حمزة أدرك بحدسه أن محاوره ربما يكون أحد المقربين من الأمير..

وبعد سبعة أيام على خبر الخليفة أطلت أولى طلائعه من أعالي هضاب سايس بالرايات البيض والنياشين الحمراء، المرفوعة على فرقة المدفعية التركية ...خبر جعل المولى أحمد يخرج بنفسه لاستقبال أخيه الأكبر...برحابة صدر.

الفصل الرابع: راية السعديين بقرية الحيل

الحقيقة أنه كان لقاء مشهودا ذاك الذي جمع بين الأخوين منذ افتراقهما بمراكش، إثر عودتهما من تلمسان بفرقة الحامية العثمانية،وهكذا اكتملت جيوش السعديين في يونيو/حزيران من العام **1578**للميلاد، وأمراء الأشراف يعلمون بأن الحملة الصليبية بقيادة دون سباستيان قد وصلت قبلهم إلى طنجة ، تمهيدا لنزولهم اتجاه أصيلا...مخلفة رجة وزلزالا في نفوس أهالي فاس وباقي المناطق ..لكن هذا الخبر لم يضعف عزيمة المغاربة على الاجتماع مع الأخوين للتصدي للأوربيين برتغال وألمان وايطاليين..

أما حمزة فقد قضى ربيع العام**1578**، متدربا في صفوف متطوعي جيش الأمير أحمد، دون أن تتاح له فرصة لقاء الشريف السعدي ، حتى قدمت جحافل عبد المالك السعدي نحو فاس ،في صيف نفس السنة .

وذات مساء اتجه حمزة نحو جامع "المولى إدريس " لصلاة المغرب التي تمت تأديتها في جو من الابتهال، وقراءة سورة الأنفال، والتضرع إلى العزيز القهار ...وقد أجمعت القلوب على خطورة الموقف العصيب، والأخطار المحدقة بالعباد والبلاد ،فكان حديث المصلين بعد الصلاة لا يحيد عن موضوعين اثنين:

* الأول وصول جيش الخليفة من مراكش.

*والثاني: نزول البرتغاليين بمدينة أصيلا ..

ولعل أولى التساؤلات التي جالت ببال حمزة بعد سماعه حديث المصلين –وهو الفتى الذي لقي ما لاقاه من هؤلاء الغزاة المعتدين- متسائلا:

- ترى أين سيكون اللقاء بين الجيشين؟؟

إن حتمية المكان تكاد ترتسم في ذهن حمزة وصوت اصطدام السيوف تبدو في مخيلته كموسيقى حزينة ممزوجة بصوت الطبول ، لفرط ما يتوق إلى مواجهة هؤلاء النصارى، والذين أذاقوه أكثر من غيره شدة جبروتهم ، وما قصة اختفاء والده، وحادثة أسره، ثم

تسببهم في اختفاء والدته إلى حدود اللحظة حيث لم يعثر لها على أثر.

دخل حمزة في حديث مع الجماعة الملتفة حول فقيه المسجد ،وقد كان الكلام ممزوجا بحماس قل نظيره ، حيث الكل يجمع على ضرورة التصدي للبرتغاليين وطردهم خارج الثغور ، وإن اختلفت الوسيلة فالغاية موحدة وواضحة،غير أن حمزة أسر للقوم على أهمية استغلال عامل الزمن لصالح المغاربة ، قائلا:

- تعلمون أن هؤلاء المغيرين لا يقلون عنا حماسة، وقد فعلت فيهم سموم البابا ما فعلته من روح صليبية.

ثم استطرد:

-لكننا بعون الله وقوته ، ومع التفافنا حول سلطاننا سننتصر ، ونهيئ نهر ريسانة كمقبرة للغزاة القادمين كالجراد من ضفة البحر الأخرى.. أراد حمزة لكلامه أن يكون مؤثرا ومسموعا حتى يحقق غاية في نفس يعقوب.

استغرب أحد الحضور دقة كلام الفتى وشدة ثقته وقدرته على تخيل مكان وزمان ومصير المعركة التي بدت بوادرها تلوح عن قرب ، وحينها تقدم رجل من خاصة القوم- يبدو ذلك من هيئة ثيابه. فرد على كلام الفتى:

- وما يدريك أن لقاءهم سيحدده نهر ريسانة؟

رد حمزة(وكان يتوقع مثل هكذا سؤال) :

- يا سيدي، إن المنطقة المحاذية لمكان نزول أعداءنا تشكل فيها الأنهار سلاحا حاسما، فإما لك أو عليك ،إن لم تحسن التواجد في المكان والزمان المناسبين.

ازداد بقية المصلين انتباها للحوار الدائر، ويبدو أن كلام حمزة قد ترك في نفسية الرجل بعض الأثر ، لذا انتظر حتى تفرق المصلين ، لينفرد بالفتى مخاطبا إياه:

- لعلك تعلم أن أمتك اليوم في حاجة مصيرية إلى أمثالك ، فأنت وعلى ما يبدو من كلامك شاب مستقيم السريرة ، حماسك ظاهر عليك دون تهور ، ولعلني أتوسط لك في الدخول على الأمير أحمد ،

فقط عليك أن تشرح له خطتك التي ذكرت لنا جزءا منها، والقائمة كما قلت على مساعدة النهر لنا.
أطرق حمزة مليا قبل أن يجيب السائل، بدا وكأن ذاكرته قد سافرت به إلى زمن مضى ، فقد تذكر ولا شك ذاك الحوار الذي لن ينساه:
" إن في نهاية هذا النهر ، قدر حمزة ".
كانت تلك النبوءة بمثابة صرخة أطلقها شيخ الجيل من على برجه العالي، دون أن يزيد على قولته تلك أية تفاصيل...وكأن حمزة قد آمن يقينا بأن للكلمة سحر ما ...قصة قد تكون نهايتها مجد للفتى،فما عليه إلا أن ينسج باقي تفاصيلها المبهمة.
ويبدو أن ذلك الحدث قد منحه دفعة معنوية لمواجهة دهشة اللقاء الأول مع الأمير الشريف..وهو من هو، ذاك الشاب الريفي البسيط –والمؤمن بأفكاره أيضا- ... يدرك يقينا أن لقاء الملوك ليس بالأمر السهل ، والذي يهمه أكثر:
- أن يتمكن من إقناع الأمير بخطته تلك.
خاطب حمزة محاوره :
- اعلم ا سيدي أن الخطة التي حدثتك عنها ، إنما تعمدت تركها مبهمة أمام الملأ تجنبا لذيوع خبرها ، وربما وصولها إلى أعداءنا فعيونه كثيرة.وسأخبرك أن جزء منها كنا نوظفه عند هجوم الشبح علينا، هناك في قريتنا ، قرية الجبل.
- وما ذا تقصد بالشبح ، يا بني؟
- تلك كلمة كنا ننعت بها نصارى مدينة أصيلا حينما كانوا يكتسحون مداشرنا ويستاقون أقواتنا ، ثم ينسحبون بتلك السرعة التي يباغتوننا بها...كأنهم أشباح.
رد الرجل:
-حقا إن هؤلاء قد بلغوا الحد الذي يحتم علينا بذل الغالي والنفيس،لاقتلاع جذورهم من وطننا.
ثم أردف:

- لا عليك يا ولدي ، فقط رافقني حتى أرتب لك لقاء الأمير أحمد ، ولو أنه في شغل شاغل بعد وصول أخيه المولى عبد المالك من مراكش.

هناك في قرية الجبل النائية وصلت أولى الهمسات التي تتحدث سرا عن نبأ اجتماع قادة الجيش السعدي لملاقاة البرتغاليين في " معركة المصير" ، وسرعان ما تحولت تلك الهمسات إلى نقاشات حامية بين أهالي القرية يطبعها التفاؤل الحذر،وعلى الأرجح أن بعض ممتهني العطارة هم من نقلوا الخبر الذي تأمل من خلاله القرية –لو صدق- أن تتخلص أخيرا من جحيمها.

والحقيقة أنه كلما انتشر خبر كهذا بتلك القرى التي تعاني ويلات تسلط نصارى المدينة على أرواحهم وممتلكاتهم،إلا واستحضر الأهالي ذكرياتهم المريرة مع ذاك الشبح المدمر.

الغالية تتذكر أكثر من غيرها ما فعله شبح النهر هذا في حق قريتها ،بل وتنزل عبرات حارة، ودموعا مغزارة وهي تتحدث مع إحدى صويحباتها حينما تذكرت : آل العربي، جيرانها ،حيث مصير أسرة بأكملها قد غلف بالسواد ، إذ تستحضر الغالية ذكرى جيرانها بكثير من الحسرة، وقليل من الأمل ...تخاطب صويحبتها:

- كأن أسرة العربي ولد مي حليمة أصابتهم لعنة الشتات ،أو تحالف عليهم الشبح ،والقدر ..ثم تبكي بحرقة محاولة استكمال حديثها...غير أن الدموع تخنقها ، فتتدخل صويحبتها :

- ما عليك إلا التحلي بالصبر ، فلكل مصيبة مخرجا ..ولنا في الصالحين والمرسلين قدوة وسندا .

- أعلم ذلك، لكنني ما زلت في أمل ، وترقب لرجوع الصافية أو ابنها ، فلكم أتمنى أن يجد حمزة أمه ، ويعودوا لنا غانمين سالمين . أما العربي فقد فقدنا الأمل في رجوعه منذ سنين خلت .

ردت عليها صويحبتها :

-والله ، لا أجد لكي يا عزيزتي من مواساة. سوى استحضار قول النبي " يعقوب" عليه السلام حينما فقد " يوسف " و" أخويه " قال : " عسى الله أن ياتيني بهم جميعا" (سورة يوسف الآية **83)**

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

والحقيقة أن أهالي " قرية الجبل " لم ينسوا جارهم العربي ولد مي حليمة، ولا حتى زوجته الصافية وابنهما حمزة ، وإن عجزوا أن يجدوا تفسيرا منطقيا لتأخر الفتى عن الرجوع إلى القرية.

أكملت الغالية حديثها :

- يا لسخرية الأقدار .. ذهبت الصافية للبحث عن ابنها ، فإذا بحمزة هو من غادرنا للبحث عن أمه !!

ثم أكملت بنبرتها الحزينة :

- كل ما أتمناه يا صويحبتي ألا تجرفهم تلك الدائرة المفرغة التي وضعتهم داخلها الأحداث العاصفة.

كان هذا الكلام الأخير للجارة الغالية ، قبل أن تنتصب مودعة صويحبتها ، عائدة إلى بيتها القديم والذي كانت قد غادرته فترة مكوثها مع الصافية.

تسارعت الأحداث منذ نزول الحملة الجرارة للصليبين بقيادة الملك البرتغالي الشاب " دون سباستيان " صيف العام **1578**للميلاد، وهذا الدون سليل أسرة ملكية عريقة ،أمه هي كاترين الدوقة النمساوية ، وخاله هو سيد البحر الأبيض المتوسط، وحاكم إمبراطورية عظمى ، وحامي الكنيسة الكاثوليكية " فليب الثاني"، الذي يتحكم في معظم القارة الأوربية ببلاد شاسعة المساحة، تلامس أطراف إيطاليا العائمة في المتوسط ، وتمتد أطرافها إلى ما وراء بحر الظلمات، بعد أن مهد له أجداده " فردناند وإيزابيلا" السبل رفقة عرابهم " كريستوف كولومب" للكشوفات الجغرافية التي أتاحت للإسبان امتلاك معظم العالم الجديد في شقه الجنوبي ، بكل ثرواته ومعادنه ومزارعه الخصبة..

كما أن دون سيباستيان هذا يعتبر نفسه –كشأن الملوك الأيبيريين المدفوعين بروح الريكونكيستا- حاملا للصليب المقدس والسيف الخادم لكنيسة الرب.

ولعل اندفاع الشباب قد بلغ بهذا الدون مبلغا جعله يتعجل الخروج – رغم تحذير خاله فليب الثاني - لإلحاق الضفة الجنوبية بالمملكة البرتغالية ، أو ما تبقى من ثغور مغربية بالتاج البرتغالي الطامح

للسيطرة .وازى هذا أن البلاط الملكي لسيباستيان كان محاطا بطبقتين لا تقلان عنه غرورا وحماسة :

* الفرسان : المنحدرين من عائلات نبيلة محاربة كانت قد اكتسبت مجدها منذ قرون ، من فروسية أفرادها، والقصص الأسطورية لأبطالها.

*التجار الكبار : المدفوعين بازدهار تجارتهم خارج الحدود الضيقة للملكة البحرية الصغيرة التي ازدادت أهميتها بصولها كالكوتا منذ أن أبحر دي غاما بسفنه الأربع من نوع الكارافيلا ذات ربيع من العام**1498**للميلاد.

وهكذا اجتمعت مصالح أهل السياسة، بجشع التجار الكبار، يغذي ذلك كله ترويج الكنيسة لروح صليبية توقد نارها من هناك ، حيث البابا القابع في كنيسة القديس بطرس بالمدينة الخالدة .

وشاءت الأقدار أن تكون المحطة هذه المرة البلاد الإسلامية الأقرب ، ولم يكن قريبا من هؤلاء أكثر من بلاد المغرب.

لذا حجبت السرية التامة المحيطة بالحملة البرتغالية كل الأخبار عن أهالي القرى المحيطة بأصيلة ، ومنها قرية الجبل التي لم يصلها سوى خبر تقدم جيوش عبد الملك المعتصم بالله نحو فاس ، ولعل هذا ما جعل الأهالي لا يغادرون فرارا من قدوم جيش سيباستيان الجرار ..وهم يدركون أكثر من غيرهم أن هؤلاء النصارى حينما سيتحركون ستكون " قرية الجبل" أول البلاد المستباحة لهم مجالا ومواشي وحتى أرواح.

غير أن الحملة وبمجرد وصولها أصيلا أحدثت رجة اهتزت لها المدينة ، واستقبلها أهالي أصيلا بأماني متناقضة ..

فهاهم نصارى المدينة يخرجون مهللين بوصول الملك دون سيباستيان، مستقبلين الحملة بالترحاب ...يتقدم كل هؤلاء راهب المدينة وقسيسها الأعظم، حاملين صلبانهم وهم يؤدون تحية الترحاب للدون والمرافقين له من قادة ونبلاء وتجار ومغامرين ومرتزقة من مختلف الجنسيات وحتى راقصات ومغنيات كان قد تم استرقاقهن من مستعمرات البرتغال البعيدة بإفريقيا الاستوائية والمدارية.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

راهن حمزة كثيرا على لقاء الأمير أحمد حتى يطلعه على واقع قريته والمناطق المحاذية لنصارى البرتغال من جهة، وما يقوم به هؤلاء الغزاة من تخويف وتجويع للأهالي هناك من جهة ثانية.
وكان لحمزة ما أراد صباح اليوم الرابع للقائه الشيخ ،والذي لم يكن سوى أحد المقربين من بلاط الأمير ...فقد سمح لحمزة بالدخول إلى القلعة حيث يعسكر جيش الأشراف السعديين ،ولكن أمر نائب السلطان ليس بالأمر السهل ، فقد كان على الشيخ المخزني أن يقضي ثلاث أيام بلياليها حتى يرتب ذاك اللقاء الذي يعقد عليه الفتى كل أحلامه...وبعد أزوف ساعة اللقاء هاهو حمزة يدخل على الأمير أحمد.
- السلام عليكم أيها الأمير.
بهذه التحية خاطب حمزة الأمير أحمد نائب السلطان .
- وعليكم السلام ،اجلس أيها الفتى .
أشار الحاجب إلى حمزة بالجلوس على الجانب الأيسر للأمير ، حيث بدت الدهشة والسرور معا باديان على قلب الشاب الهادئ .
ثم أردف الأمير:
- ما اسمك؟
- وما حاجتك؟
- اسمي حمزة يا سيدي ، من سكان قرية أهل الجبل ، إلى الشمال من فاس ، وهي إحدى القرى المتاخمة لأصيلة .
أراد حمزة بهذا الجواب الفطن، أن يوجه الأمير بشكل سريع إلى قضيته الأساسية .
رد الأمير :
- إذن لا شك عندي أن قريتك تعاني حملا ثقيلا بهذا الجوار .. جوار البرتغاليين؟
- أجل يا سيدي..ولعلي بسرد قصتي القصيرة عليكم ، سيظهر لكم سوء ما نعانيه ،لكن هذا لم يزدنا مولاي سوى رغبة في طرد هؤلاء الغزاة نهائيا من بلدنا وأرض المسلمين.
ثم أكمل الفتى :
- أنت تعلم أيها الأمير ، أن الضربة التي لم تقتلك تزدك صلابة .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

قال الأمير - مبديا تعجبه من تلميحات الفتى- :
- كيف ذلك ؟
وكأن حمزة كان ينتظر فقط الإذن من الأمير ، فلما حانت الفرصة، هاهو يستغلها ليسرد على مسامع الحضور حكايته ، وقصة أبيه الأسير المختفي ،وأمه الصافية ، مركزا في حديثه على رسم صورة واضحة للوضع الجغرافي لقريته والمداشر المحيطة بها ، ودور النهر في تحديد العلاقة غير المتكافئة بينهم وبين " شبح النهر"،ليختم بتنبيه الأمير إلى الدور الذي من الممكن أن تلعبه قرية الجبل في الصراع الوشيك بين القوتين .
والحقيقة أن هذا الوصف هو ما كان يحتاج سماعه الأمير أحمد في العثور على شخص خبير بالمكان المتوقع للمعركة ضد البرتغال ، رغم إخفاء السعديين لخطة التنقل إلى الشمال، حتى تظل خططهم طي السرية تحسبا للعيون المندسة.
قال الأمير أحمد :
- وهل من سبيل ، يا حمزة لمحاصرة المدينة نفسها ؟
- كلا يا مولاي..فمن خلال تجربة الأسر هناك ، فالمدينة محصنة بالشكل الذي يستحيل اختراقها برا ، ولا يمكن دخولها إلا من جهة البحر ، وتعرفون أن هذا ضرب من المغامرة في ظل سيطرة البرتغاليين على السواحل ، ثم إن سفنهم المسلحة لا تفتأ تقوم بدوريات بشكل شبه دائم .
أبدى حمزة نكرانا للذات عز نظيره، فشخص في مقامه هذا كان يتمنى بالأحرى لو تتم محاصرة المدينة من قبل الأخوين واسترجاع المدينة ، ومعها استرجاع معشوقته شمس-الضحى والتي تركها هناك بعد هروبه ..لكن حمزة كان ذاك الكيس الذي يدرك عواقب هذا الهجوم على جيش الأشراف ، لذا آثر الفتى مصلحة تهيئ النصر الأكبر، على متمنيات رؤية فتاة العمر .
غير أن هذه التضحية لا يمكن بحال من الأحوال أن تنفي صفة الاشتياق على قلب الفتى ، قلب محب كقلب حمزة ، فقد مضى زمن دون أن يرى شمس أو حتى سماع خبر يطمئنه إن كانت لا تزال

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

على قيد الحياة حتى.وزمن العشاق طويل إن كانا البعد شيمته ، ولحظة عابرة إن كانت اللقاء قريب.

وحده الأمل يحيي في قلوب العشاق، موعد للقاء ، حتى ولو بدت السبل شبه منعدمة ...غير أن الواقع يخبرنا أن قلب الفتى مقسم بين لوعة العشق لشمس الموريسكية ، ومرارة الفقد لأمه الصافية ، والتي لحد الآن لم يجد لها أثرا..وإن كان أمله في رؤية والده العربي ولد مي حليمة قد تلاشى تدريجيا من مخيلته.

ظل حمزة يسرد كل ذكريات أحباءه وهي تمر كشريط متوالي الأحداث ، بعضها حلو ومعظمها بطعم العلقم ..إذ بادره الأمير:

- قريبا ،ستأخذ معك مفرزة من الجنود وتقصد الطريق التي قد يسلكها العدو ، تترصدون أحواله ، ومكان نزوله .

قال حمزة :

-السمع والطاعة يا مولاي.

والحق أن عبد الملك قد أجمع على رأي موافق للأول يتمثل في إرسال برقية تمويه إلى ملك البرتغال يخبره بالقدوم إليه، وتحديد لقاء للمعركة خارج أسوار أصيلة ، وهي خطة تتماشى مع قاله حمزة سابقا .

وذات صباح باكر قصد الفرسان قرية الجبل وقد تعمدوا تغيير ملابسهم حتى لا يتسنى لأحد معرفتهم فيكشف مرادهم..

وبعد ثلاثة أيام كانت" قرية الجبل" تتراءى للفرسان من بعيد ،يخيم عليها ظل الجبل وتزينها قبة سيدي الشريف من أعلى ، وكأن ذلك المبنى هو الذي يمثل " حارس القرية"...فكان أول بناية يبصرها حمزة فعاودته ذكريات لقائه بالشيخ والجدة مي حليمة .

وهاهو بعد عودته من فاس يقف عند باب منزلهم وهو يعرف مسبقا أن لا أحد يسكنه بعد مغادرة أمه الصافية للبيت بحثا عن صغيرها الذي لم يعد حسب اعتقادها .

فتح حمزة الباب وأدخل معه باقي الجنود بعدما ربط الخيول ربطا محكما معتقدا أن أحدا لم ينتبه لهم بعدما دخلوا وقت انسدال الظلام حين المغيب ..وما هي إلا لحظات حتى طرقت الغالية -الجارة الوفية- الباب بعدما أحست بأن أحدا ما موجود في دار العربي

الشبه مهجورة.. فخرج لها حمزة ، وما إن رأته حتى احتضنته باكية وفرحة بعودته ، والفتى يبادلها نفس الشعور فهي بمثابة أمه ولطالما اعتنت به كأنها أمه الثانية وهو بعد صبي ... وسألته :

-ألم تجد والدتك الصافية في فاس " ؟

- للأسف يا خالة، فقد أضناني البحث في فاس دون جدوى"... ثم في غفلة منه سالت دمعة من عينيه كشفت للجارة حالة الفقد التي تعتريه.

ربتت الصافية على كتفه قائلة :

- اصبر يا بني لعل الله يجمع بينك وبين أبويك ،و لا تيأس من روح الله " ثم أكملت :

-والفرسان الذين قدموا معك؟

-هم جنود مولانا الخليفة ...فعما قريب سنطرد ذلك الشبح يا خالة .

فرحت الغالية بالخبر وردت :

- ومن أين لك كل هذا الخبر ، يا حمزة؟

-إن مولانا الخليفة وجيشه قادمون على إثرنا..وكل ما قلته لكي يبقى طي الكتمان.

- سرك في بئر عميق يا ولدي .

ردت الغالية والتي يبدو أن الخبر أوقعها في دهشة كبيرة ، ثم طلبت من حمزة الانتظار وبأنها ستعود سريعا... أما الفتى فقد دخل إلى منزلهم حيث طاف في أرجاء كل ركن من بيته ، مستنشقا في الوقت نفسه رائحة جدته مي حليمة، وأمه الصافية. فهذا العبق لا يمحوه الزمن ، وإن شعر أن البيت فارغ من روحه بغياب والدته..

فالبيوت التي تغيب فيها الأم تبدو باردة لا دفئ تحمله ،ولا حنان تنشره في الأرجاء ، فهي الملح الذي لا غنى عنه ..كل ذلك جال في خاطر حمزة وهو يستند إلى نفس الأريكة التي حملته وهو صغير .

وما هي إلا لحظات حتى عادت الغالية وقد أطرقت الباب من جديد حاملة معها خبزا وزبدة وكوبا ساخنا من حليب الماعز لحمزة وضيوفه ، حيث شكرها الفتى مقبلا رأسها .

وبعدما طعم أفراد الكتيبة زودهم حمزة بأغطية كانت مرتبة في بيتهم الصغير ، وذلك حتى يتسنى لهم نيل قسط من الراحة هم في حاجة ماسة إليها بعد اجتيازهم " طريق المتاعب" .

بعد يوم كامل وليلة مقمرة –اعتبرها حمزة طويلة – جمعت بين الخوف والرجاء واستحضار الأهل والأحباء وترجي لقاء فاصل مع هؤلاء الأعداء ...أمل كبير حذا حذو حمزة،وهو يشق الطريق الشمالية نحو السليبة " أصيلا" ذاك الشعور بالفقد الذي يلامس قلبه العاشق كلما تذكر من كانت سبب عتقه من قيود الأسر" حبيبته شمس" ... بدا وكأنما يحدث نفسه:

- ترى ماذا بقي من جمال شمس-الضحى بعد أن تسلط عليها سيف العبودية ؟

ثم خمن جوابا لسؤاله ذاك:

-على الأقل إن محا سوط الزمن ذكراي من قلبها ،فسأسعى دوما لالتماس الأعذار لها، وهذا على الأقل ما يمكنني فعله حتى أسدي لها جزء من جميلها ، في ذاك اليوم حينما خاطرت بحياتها من أجل إنقاذي.

والمعروف أن حمزة هو المسئول عن تلك الفرقة الاستطلاعية،فهو الذي يعرف أكثر من سواه تلك الأرض شبرا شبرا ، بل إنه يعرف حتى" أصيلا"وغاباتها المجاورة بعد قصة الأسر الأليمة .

كلها معطيات جعلت من حمزة –رغم حداثة سنه-يتقدم على باقي عناصر الفرقة ، حتى تسنى له نيل شرف قيادتها.

كانت تلك القيادة أولى إنجازات حمزة الفردية ولن تكون الأخيرة، ومعها تتحقق بعض من بشارات جدته الراحلة " مي حليمة" كنبوءة عجوز بدت مستحيلة التحقق ذات يوم.حتى وإن كانت المهمة تبدو بسيطة لكنها مغلفة بآمال وأماني تفوق الجبال، وتتحدى الخيال، بالنسبة لنفسية بطل يولد رويدا رويدا من طينة الرجال.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وقد أثبت الفتى قدرة قيادية في الطريق نحو إنجاز مهمته الاستطلاعية تلك، بعد أن انتدب أحد مرافقيه لمهمة بالغة الصعوبة وهو يدنو من ضواحي أصيلا:
التنكر في زي راهب نصراني .
وقد كلف المدعو" المامون الفلالي" تاجر من بلاد تيط ،قاده قدره إلى السقوط أسيرا لدى البرتغاليين بمستعمرتهم " مازاغان" وحكم عليه بالإعدام بعد تهمة ثقيلة:
-بيع السلاح لقبائل دكالة المتاخمة للبريجة. وهي تهمة كانت كافية لتزج بالمامون في سراديب السجن بالقلعة البرتغالية شديدة التحصين والمراقبة،غير أن مجرى الأحداث هبت بريح الفرج للتاجر الفلالي بعد أن سعى حاكم أزمور " دوم يوحنا دي مينيزيس " بعقد صفقة تبادل أسرى مع قبائل دكالة جعلت المامون خارج أسوار سجن مازاغان، ليستقر به المقام أخيرا بفاس...و بعد أن سمع بمهارته الأخوين الشريفين - خاصة علاقته بالبرتغاليين - ضموه لفرقة حمزة الاستطلاعية ، ومن تم انتحال صفة الراهب والدخول إلى أصيلا لجمع أخبار العدو الذي نزل بجيشه الجرار بأصيلة صيف العام **1578** للميلاد.
والمعلوم أن المامون هذا قد مكث ما يقارب تسعة أعوام أسيرا لدى برتغالي مازاغان ، عايش حينها سلوك وعادات وتقاليد البرتغاليين ، بل ولطالما عمل في ترميم وتزيين كاتدرائية القلعة المجاورة للسجن، وهذا ما جعله يكتسب معرفة بالشؤون الدينية للقائمين على الكنيسة الكاثوليكية بالقلعة.
على أن السر وراء تكليف حمزة لرفيقه المامون بتلكم المهمة البالغة الخطورة هي ملامحه القريبة من ملامح البرتغاليين :
- عينيه الأقرب لونهما إلى الزرقة.
- وشعر يغلب عليه اللون الأشقر.
- وأكثر من ذلك، لسانه الذي أضحى يجيد لغة القوم .
كلها مؤشرات رأى فيها قائد السرية الاستطلاعية بأن المامون يمتلكها وقد يجيد استغلالها في مهمته تلك، فما على الحظ إلا أن

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

يخطو خطوة صغيرة نحو صاحبه المامون حتى يتيسر له جمع كل معلومة قد تغير مسار مواجهة وشيكة جدا.

أسرع المامون الفلالي نحو أصيلا بفرسه يسابق الريح في خطاه، ومتجنبا في الوقت نفسه الطريق التي يمكن أن تسلكها "حملة دون سيباستيان" حتى لا يقع في شركهم ويتعرض للأسر من جديد أو ربما القتل هذه المرة.
وهو يقترب من مدخل القلعة البرتغالية كان قد رسم خطة في باله، وهي ألا يدخل المدينة إلا مع حلول الليل ، ثم التسلل إلى داخل الأسوار مستغلا حالة التراخي في الحراسة بعد اطمئنان نصارى المدينة بقدوم:
"الحملة البرتغالية الكبرى" .
ما إن أتيحت للمامون فرصة الدخول حتى فك قيود فرسه ليتركه في حال سبيله ،لكونه سيشكل عليه خطرا ويعيق تقدمه ، ومن المستحيل دخوله المدينة راكبا ، بل تخلص المامون حتى من ثيابه وارتدى بدلها قلنسوة بالية أحضرها معه، ثم وضع صليبا على عنقه ،وتسلل إلى داخل المدينة والتي كانت تبدو كمدينة أشباح ، إذ أن معظم الذين استطاعوا حمل السلاح من أهلها قد رافقوا" حملة سيباستيان " المغادرة لتوها ، حتى الأسرى والمسجونين والعبيد من غير البرتغاليين أجبروا على مرافقة "جيش الدون المعظم" الذي رأى أن الفرصة مواتية لإلحاق باقي مناطق المغرب بالإمبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف.
أما المامون الفيلالي فلم يجد صعوبة قصوى في جمع المعلومات واستطلاع أخبار الحملة ، إذ لاحظ أن لا حديث إلا عليها من طرف من آثروا البقاء في المدينة ، يفتخرون " بمجد سيباستيان " وجيشه الذي لا يقهر،يناقشون نياشينه المزركشة،ويعجبون بفرسان الصليب الشجعان المسربلين بالحديد ..

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

قال أحد المتجمهرين حول شيخ مسن:
" إني لأكاد أجزم يقينا أن ملكنا" دون سيباستيان" لن يوقفه شيء حتى يدخل قصور فاس عاصمة الموروس .
رد آخر:
" كم أتمنى أن يواصل سيره حتى " مازاغان" فإني أعتقد أنها قلعتنا الحصينة ، وتصلح أن يتخذها مقرا لحكمه الجديد بهذه البلاد".
كل ذاك الحوار وغيره مر على مسمع المامون الفلالي والذي كان يظهر البشاشة عقب كل كلام متحمس للنصر الوشيك- حتى لا يكشف أمره- بل إنه أبدى المشاركة بقهقهاته في الحوار الدائر بالقرب منه.

وبعد أن بدأ المتجمهرون في التفرق ، اقترب المامون من أحدهم ووجه له السؤال:
- ولماذا لا نستعين بالأسرى المغاربة والأندلسيين في هذه الحملة؟
و أضاف :
- حتى يقدموا خدمة " لحملة الرب المباركة" كجر المدافع، والسهر على راحة الرهبان المرافقين للجيش المقدس..

رد عليه الرجل"(وكان على ما يبدوا يقارن بين كلام محاوره وهيئته المتنصرة، وهذا ما كان يريده المامون ، بأن يصنفه الرجل في خانة القساوسة):
*"لا عليك أيها الأب الجليل، فقد أخذ جل الأسرى مع الحملة المقدسة ، ولم يتبقى منهم سوى الشيوخ ومن نحن في حاجة لهم كهؤلاء الذين يجيدون الزراعة أو البناء."
اغتنم المامون الفلالي اطمئنان الرجل له ، ليقول له:
" وأنا أريد أن أشتري أحد الأسرى العبيد لزراعة أرض مجاورة للدير الذي أسكن فيه ، وذلك حتى يتسنى لنا تقديم الأكل اللازم لحجاج الكنيسة ."

أرشده الرجل إلى الجناح المخصص للأسرى أسفل القلعة وكان ذاك مبتغى المامون الفلالي ، وهي وصية " حمزة" التي زوده بها :
- قائمة بأسماء الذين وجب عليه تقصي أخبارهم في حال نجاح مهمته.

*العربي ولد مي حليمة.
*شمس-الضحى الفتاة الأندلسية.
*ابن شرف والد شمس.
*شمويل اليهودي الإشبيلي.

شكر المامون الفلالي صاحبه ودعا له بأن يباركه الرب كما بارك الجيش المغادر، ثم ودعه واتجه إلى حيث أرشده الرجل.

استجمع قواه ثم قصد الحارس:

-" يا بني، إني أريد أن أشتري أحد العبيد الأسرى وقد أرشدوني إلى هنا.".

-(ثم أضاف دون أن يطيل النظر في الحارس)...وأريده قوي البنية، ماهرا في الزراعة حتى يعتني بالأرض المجاورة للدير".

رد الحارس مقبلا يد المامون:

*" أيها الأب المعظم، أدخل واختر ما شئت منهم، وإن كنت تعلم أن معظم الأسرى القادرين على إعانة " حملة الرب المقدسة" قد تم ترحيلهم "

رد " الأب المتخفي" بتأدب :

-" إذن سأستعين بأحد المتبقين في خدمة الكنيسة".

ثم تقدم نحو بهو السجن ، ومنها إلى أحد المسجونين بعدما بدا له من خلال ملامحه أنه مغربي ولا شك .

أشار المامون إلى الحارس بفك قيود المشار إليه بالأصابع،قائلا:

" يا بني فك قيود رجليه، واترك الأغلال في يديه ...فإني لا آمن غدر هؤلاء البرابرة المتوحشون(قالها له ببرتغالية يشوبها الغضب..ثم دفع الأسير بقوة حتى كاد يسقطه أرضا ، مخاطبا إياه :

*" هذه اللطمة القاسية لكي تتعلم أن تقبل يد القديسين حينما ينعمون على أمثالك بالحرية"

وما هي سوى لحظات حتى كان المامون والأسير يغادران باب القلعة بعيدا عن أسوار السجن الرتيب ...بعدها فاجأ الفيلالي أسيره بأن خاطبه بلهجة عربية :

-" من أي البلاد أنت ؟

*" وما اسمك؟ "

لم ينطق الأسير ببنت شفة ، فقد شق عليه ما فعله به الراهب وهما في السجن ....وحتى المامون لم يكشف له عن هويته الحقيقية خوفا من أن يستغلها الأسير ، وربما صاح بأعلى صوته :

-" هذا جاسوس... هذا جاسوس"

لم لا يفعل؟

وقد تكون لدى الأسير فرصة ذهبية، ينتهزها ليحصل على مكافأة ما كانت له في الحسبان، أو أن المامون تخوف من أن يكون المعتقل السابق قد ألف حياة الأسر، ومعها تعود الخنوع والتذلل ، فتضيع كل الجهود سدى.

لكن المامون أعاد صياغة كلماته بأسلوب هذه المرة أقل حدة مما سبق :

-" لا تخف ، لن أؤذيك مرة أخرى، إن أنت كشفت لي عن أصلك ، ومنطقة مولدك فكثيرا ما تجولت في أصقاع هذه البلاد "

كان هذا الخطاب الدبلوماسي قد انطلى على الأسير الغاضب ، فنطق أخيرا :

-" من بلاد تامسنا "

رد المامون :

*" تلك البلاد أعرفها ، فقد سيطرنا على مينائها " آنفا" مدة طويلة .

رد الأسير: (وقد ازداد غضبه)

-" وأي شبر لم تدنسوه بأقدامكم، في هاته البلاد المنكوبة !"

ثم أكمل كلامه متحديا جلاده :

-" لكنها الفاصلة هذه المرة ..."

بعد الكلام الأخير تيقن المامون من معدن الرجل الذي يحاوره ، شدة طموحه ، وغيظه على المحتلين بادية عليه ، ولم يزده الأسر إلا إصرارا .

قال المامون حينها :

-" وأنا مثلك أتشوق لليوم الذي نذيق فيه هؤلاء النصارى كأس العلقم.."

بعدها كشف المامون الفيلالي للأسير حقيقته وأظهر له هدفه ، قائلا :

-" هل تعرف أسيرا بهذا الاسم :
" العربي ولد مي حليمة " ؟"

تنهد الأسير – وكان اسمه حميد – طويلا ، ثم قال :

*" العربي...ذاك الأسد الأسير ، كان رفيقي في نفس الغرفة ، ثم ما لبث البرتقيز أن أخرجوه مكبلا ذات ليلة ، علمت فيما بعد أنهم حملوه في سفينة كانت متجهة صوب بلاد الزنوج "

ثم أكمل حديثه بتأثر بالغ :

-" يبدوا أن سواعد العربي القوية قد أغرتهم للاستفادة من عضلاته في التجديف على سفنهم تلك ."

سكت الأسير حميد بعدها هنيهة ثم أتم كلامه :

-" لطالما قص علي العربي كلاما عن حمل زوجته ، وأنه يتمنى يوما أن يرى مولوده أو مولودته ...تلك كانت غصة تعصف بقلبه الجريح كلما تذكر أهل بيته، دون أن ينسى أمه الطيبة " مي حليمة " (مبتسما يقول أنه صار يعرفها لكثرة ما كان العربي يحدثه عنها)

كان العربي يتساءل مثلنا:

*" متى يأتي ذالك اليوم الذي سنستأصل فيه شأفة شبح النهر ذاك – كما كان يلقبهم ابن مي حليمة -؟؟

طمأنه المامون رغم أنه في عجلة من أمره ، قائلا :

-" لعلك لا تعلم أن ذاك الأسد، قد أنجب شبلا لا شك أن عينيه تتطاير منهما شرارة لهب ستحرق قريبا هؤلاء الغاصبين "

قال الأسير حميد :

" لو أفصحت.. فإني لم أستوعب ما تقصد ؟؟"

حينها قص عليه المامون قصة حمزة ، واستعداد "الشرفاء السعديين" لمعركة المصير ، ثم سأله عن هؤلاء الأسرى الثلاثة الذين كانوا معه ، غير أن الأسير حميد لم يتعرف عليهم لوصولهم الحديث إلى الغرفة التي كان فيها .

وفي الليل ومع هدوء الحركة ، تسلل المامون والأسير حميد عبر طرق ملتوية كان حمزة قد دل الفيلالي عليها سابقا .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

خرجا معا دون جلبة متبعين أصعب المسالك المتجهة جنوبا نحو فاس، ولم يسيرا إلا بضعة أميال حتى عثرا على مخلفات وفضلات تملأ الطريق، أدرك المامون أنها تعود يقينا إلى "الحملة البرتغالية " .

غير الرفيقان من طريقهما، فاختارا مسلكا آخر ينعطف نحو الشرق ثم يلتف على الجبال المحيطة" بقرية الجبل" ، وهو المكان الذي اتفق عليه الفيلالي وحمزة كنقطة التقاء مع السرية ، والتي انفصل عنها المامون منذ ثلاثة أيام .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

ما أشد سرور حمزة بنجاح مهمة المامون ، وإن كانت لم تكتمل فصولها بعدما قص الأسير حميد ما وقع للعربي ولد مي حليمة واختفاء أثره .
والحق أن حمزة كان يود لو سمع أخبارا عن شمس –الضحى وعائلتها، و أخبار عن شمويل العبراني وغيرهم كثير من منكوبي الأندلس ، غير أن وقع خبر والده جعل الفتى ينزل عبرات حارة من على خديه دون أن تبدو عليه علامات الضعف بعد أن تعودت ذاكرته توالي فقدان أقرب مقربيه ... فقط اكتفى حمزة بالقول عند لقاء المامون والأسير حميد :
-" أحتسب أبي عند الله ، وآمل أن يجمعني به المولى في لقاء قريب "
محتفظا بآمال لقاء شمس- الضحى يوما ما ، كما يأمل في نصره القريب على هؤلاء الذي تسببوا له في كل تلك المحن التي تشبه قطع الليل المظلم .قال الفتى في قرارات نفسه :
- بالأمل نعيش ، به وحده قد يكتب لنا عمر جديد ، بالأمل كذلك نتخطى ظلمات الحياة ومطباتها المتتالية .
بعدها عادت للفتى روحه ، اتجه لصديقيه مخاطبا :
- إن خبر اختفاء والدي لن يزيدنا إلا عزما ، نحن أسود نسعى للانقضاض على وحش النهر ذاك ، ولن تفتر عزيمتنا، فيخيب مسعانا .
حينها قدم المامون تقريرا مفصلا عن مهمته إلى أصيلا ،مقدما الأسير حميد للفرقة ، ومخبرا السرية الاستطلاعية عن الاستنفار الكبير الذي أحدثته "الحملة البرتغالية" في المدينة، و التي بدت خالية على عروشها ، وهي معلومات على قدر كبير من الأهمية أرسلها حمزة على جناح السرعة إلى قائدا الجيش " عبد المالك و أحمد الشريف" إذ لم تتوقف المراسلات بين القائدين وظل التنسيق بينهما متواصلا .
صباح الجمعة الفاتح من آب أغسطس للعام **1578** للميلاد، استيقظت قرية الجبل على وقع خبر أخرجها جزئيا من سحابة الحزن التي تعيشها لسنين طوال ، إذ وصلتها أنباء عن قدوم جيش

الأشراف إلى مشارف أرضها للقاء أعدائهم القادمين من الجزيرة الأيبيرية .

ملامح رايات بيض تلوح في الأفق ، على بعد أميال ، تتقدم على الجيش القادم من فاس فرقة استطلاعية من الخيالة.

إنها ولا شك الحملة السعدية التي أعد لها قائداها " عبد الملك و أحمد" كل ما يلزم من معدات وآلات حربية وأهبة نفسية غذتها حناجر عشرات من الفقهاء والمتصوفة والمتدروشة والأولياء وأحبار اليهود ، من تعبئة للجهاد عن حوزة الدين ومصير العباد..ويبدو أن الحملة قد أخفت مقصدها الحقيقي حتى لا تصل أخبارها إلى عيون البرتغالين ...وحيث إن الرسائل لم تتوقف بين الملكين عبد الملك وسيباستيان ، فإن هذا الأخير قد انطوت عليه حيلة " الشريف السعدي" الأولى :

-أن يغادر حصنه الحصين :" أصيلا"

والمعلوم أن الجيش السعدي ابتعد في مساره عن الساحل لكون معظم ثغوره تحت المراقبة البرتغالية ،كالمعمورة وأصيلا وطنجة ، لذا فقد كان هدفه الوصول إلى مرمى حجر من القصر الكبير، واتخاذ قرية الجبل مقرا له، وقد كانت كتيبة حمزة تعي هاته الخطة – وهي الخبيرة بتضاريس تلك المنطقة - بعد أن زودها " المولى أحمد" بخبراء مسالك الجبال والأودية المتشعبة التي تخترق ذاك المجال.

وكان عباس هو من بشر قريته بهاته الأخبار ،أما حمزة فقد وجد شفاء لقلبه بزيارة ما تبقى من أهله ، وعند استيقاظه في اليوم الموالي خرج بمفرده لزيارة قبر جدته " مي حليمة " والترحم عليها ..وعند قراءة الفاتحة جلس حمزة يتذكر طفولته برفقتها وحكاياتها له عن " شبح النهر " التي تكاد لا تنتهي .

وبعد الزيارة كان لا بد أن يعرج حمزة صعودا عند قمة ذاك الجبل المنتصب كأمين وحارس روحي لقرية الجبل ...حيث يرقد جثمان " سيدي الشريف" سلطان الكرامات لدي أهل القرية المذكورة .

قال حمزة في قرارات نفسه:

- أوليس سيدي الشريف " من قال للجدة ذات يوم :

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

*إن في نهاية هذا النهر قدر حمزة " .
وكأن الفتى قد دخل في حوار مع نفسه يشعر بتداخل عجيب بين الماضي والحاضر لقريته ، وتسلط " شبح النهر المخيف " عليها .
ذاك الذي أضحت هجماته أكثر رعبا مما كان ، فلم يعد يكتفي بحملات مباغتة تنتهي بأسر الأهالي ، بل إن المستجدات تتوقع حملة وشيكة يطمح من خلالها " الملك الشاب دون سيباستيان " إلى امتلاك البلاد كلها أهلها وخيراتها ، تباركه في طموحه ذاك بركات البابا العظيم ، كما باركت " العذراء" احتلال ثغر سبتة ذات ربيع من عام **1415** م.
صعد حمزة الجبل فأشرف من أعلاه لعله يبصر مقدمة الجيش القادم ، فلم يبصر شيئا من ذلك ، فقط أبصر النهر المنساب من أعلى التلال البعيدة ، كان لسان حاله يقول :
-" أنظر إلى النهر كيف ينساب سير الثمل .
- إذ به يفتح عين الشوق إلى أحضان الجبل .
- قد قطع أميالا ، وفرق صدر الجبل .
- شط البحر لا ساحل له ينساب سير الثمل ..
تداخلت نبوءة " شيخ الجبل " مع شاعرية اللحظة وحتمية القدر على روح حمزة ، فلاحت للفتى فكرة ؟
- و أية فكرة **!!**
"إنها فكرة توظيف النهر الهادر كسلاح فتاك ضد حملة سيباستيان الجرارة "
سر حمزة بالفكرة الجديدة ، قائلا في نفسه :
-" لطالما شكلت الأنهار منعطفا لتغيير مسار حروب، أو ترجيح كفة جيش على أخر ، أو لعبت الدور الحاسم في حسم معارك فاصلة "
- فلم لا نوظفها لصالحنا ؟
-القنطرة.
-هي إذن القنطرة.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

بدا حمزة كمن عثر على كنز ثمين ، يكاد يطير من الفرح ، تمنى لو كان له جناحان يحلق بهما من أعلى هذا الجبل،إلى حيث قائد الأشراف ليخبره بفكرته ..

إنه اليوم الثاني للجيش السعدي وهو يرابط هناك على مرتفعات قرية الجبل ، وقد نشر القائدان " عبد الملك وأحمد " طلائعهم على مرمى النهر ، متأهبين لوصول مقدمة جيوش البرتغال في أية لحظة وحين .

هنا أرسل " عبد الملك المعتصم " رسالته الأخيرة إلى ملك البرتغال ، رسالة تحمل بين سطورها دهاء ومكرا كبيرين :

*" إني قد قطعت للمجيء إليك ستة عشر مرحلة ، فهلا قطعت أنت مرحلة واحدة لملاقاتي ؟"

وقد دفع عنفوان الشباب ، والطموح الجارف الذي يرافق الملك البرتغالي إلى الاستجابة لنداء " عبد الملك" ومغادرة أصيلا على الرغم من تحذير كبار مستشاريه المتعقلين من مغبة هذا الاندفاع الجارف.

بعد صلاة العشاء اجتمع " أبو مروان " وأخيه "أحمد الشريف" مع قادة السرايا الاستطلاعية ، ومن ضمنهم الفتى حمزة وقادة المدفعية التركية، للتشاور حول الخطة التي سيجابهون بها المعركة التي تلوح من على مرمى بصر منهم.

قال قائد المدفعية (أغا تركي قدم لمناصرة الأشراف بطلب من عبد المالك المعتصم) :

*"باعتباري مشرفا على سلاح المدفعية فإني أعلم يقينا تفوق البرتغاليين علينا بقوة مدفعيتهم وقدرتها التقنية ، رغم استقدامنا بالمدد من إيالة الجزائر ، والحصيلة التي لدينا تتوقف في أربعة وثلاثين مدفعا جاهزا ، والمعلومات التي رصدتها أعيننا تظهر تفوق مدافع الأعداء بأضعاف ."

ترك القائدان السعديان القائد يكمل تقريره :

" لذا أخبركم يا مولاي أن المواجهة مع البرتغاليين في سهل مفتوح ، قد لا تكون في صالحنا بالمرة "

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان كلام قائد المدفعية ينم عن خبرة طويلة في المواجهة مع الإسبان حول سواحل وهران وطرابلس وتونس ، لذا أنصت له الكل وجعلوه أول من يتكلم .

بعدها أصدر " عبد المالك " أمره لقائد الخيالة بالتحدث ، فقال هذا القائد:

-" على أنه سيكون للفرسان دور كبير في ترجيح كفة المعركة لصالحنا إن وظفناها بالطريقة التي تخدمنا ، لذا أقترح يا مولاي أن نجعل النهر فاصلا بيننا وبين أعدائنا ، على أن ننصب كمينا من ألف فارس سريع تعبر ليلا إلى معسكر الأعداء وتخلق البلبلة في صفوفهم صباحا"

ثم أكمل كلامه متوجها إلى قائد المدفعية :

*" على أن نركز عشرة مدافع من أعلى الهضبة المشرفة على النهر تطلق النار في الوقت الذي تهجم عليهم خيلنا، ثم يعبر جيشنا إليهم عبر القنطرة فيقعون بين كماشة الفرسان والمدافع".

حينها تدخل حمزة –القائد الشاب ابن المنطقة والخبير بتضاريسها – قائلا :

- ها أنت قلتها أيها القائد :

* " القنطرة."

ثم التفت الفتى إلى حيث " السلطان عبد المالك " الذي كان ينصت بتركيز إلى قادته الميدانيين ، وهم يشرحون خططهم لمعركة المصير .

" مولاي ... علينا أن ننسف القنطرة "

اعتدل " أبو مروان الخليفة " في جلسته ، بعدما بدا عليه التعب ، وإن لم تفتر عزيمته فقد خبرته الأيام وصقلته التجربة في المنفى الاختياري هناك في " الأستانة العظمى" وجعلته مشاركته في " معركة ليبانتو البحرية " يدرك خطورة التحالفات الصليبية على بلاد الإسلام، بدا الخليفة وقد أثاره كلام الفتى الشجاع .

قال " أبو مروان ":

- وماذا سنستفيد من نسف القنطرة ، وهي الإمكانية الوحيدة التي ستوصلنا إلى أعدائنا !؟

رد حمزة بلغة الواثق من خطته :

" مولاي ، ربما سيشاطرني قائدا المدفعية والفرسان خطتي التي استلهمتها من موقع قريتي هاته، ومن صراع القرى مع الأعداء ، فحينما كانوا يهجمون علينا ، كنا نرسل فرساننا لهاته القنطرة فيلقوا عليهم النبال أو الزيوت الحارقة ، وبذالك أفشلنا الكثير من هجمات " شبح النهر ".

(يبتسم حمزة حينما أدرك أن محاوريه لم يستوعبوا معنى " شبح النهر " فيقص عليهم حقيقة هذا اللقب ..الأمر الذي أضحك الأمراء ، ولطف أجواء الحوار الدائر بجدية بالغة)

أكمل حمزة حديثه :

" لذا فإني أرى أن " خطة نسف القنطرة " ستصدم المعتدين ، على أن يتم ذلك بعد عبور جيش " دون سيباستان " في اتجاهنا بناء على رسائل " الاستدراج " التي ترسلها يا مولاي ، وسنستعين هنا بالمامون لخبرته في استعمال الأسلحة النارية ، أو التفجير بواسطة غبار البارود .

"قيل لي أنك تضع في حسبانك خطة محكمة نستطيع بها مجابهة أعدائنا؟"

وجه الأمير أحمد السؤال لحمزة بعدما دعاه إلى اجتماع سري مع " أخيه عبد الملك " متحريا في الوقت نفسه درجة الصدق واليقين التي سيظهرها الفتى في جوابه الحاسم .

قال حمزة :

- أجل يا سيدي الأمير، وإن سمحتم لي سأسردها على مسامعكم بتفاصيلها .

- لا بأس يا أيها القائد الشاب ، قل وأوجز:

- الحقيقة يا مولاي أن هجمات نصارى المدينة على قرانا تعتمد على النهر بشكل كلي ...إذ أنهم يستغلون الأشجار الكثيفة بجانب الوادي كحجاب يخفي عنا اجتياحهم ، حتى إذا ما اقتربوا من قريتنا عبروا القنطرة بسرعة خاطفة ، فلا نحن نأخذ حذرنا ولا هم يحدثون تلك الرجة التي من شأنها أن تشعرنا بالخطر الماحق..

- لذا أقترح يا مولاي أن ترسلوا فيلقا من جنودكم لجمع أهالي القرى التي في الضفة الموالية لنصارى المدينة، واستقدامهم إلى الضفة الموالية لفاس حتى نتمكن من استدراج الحملة البرتغالية لتجتاز النهر، حينها تقوم فرقة من جنودنا المختبئة خلف الآكام بالتسلل ليلا لتدمير القنطرة .

في الوقت الذي كان فيه حمزة يسرد خطته تلك، كان الخليفة ينظر باندهاش للفتى ولعبقريته العسكرية حتى إنه قال :

-"إنها لخطة ذكية ،صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال "إنما الحرب خدعة "

قال المولى أحمد:

"أنظر يا أخي إلى جل المعارك التي انتصر فيها القادة باستغلالهم للأرض إلى جانبهم، فمعركة بدر انتصر فيها المسلمون بفضل اختيارهم الجيد للأرض وماء بدر لصالحهم" .

رد الخليفة:

-"ومن يضمن لنا نجاح الخطة باستدراج أعدائنا إلى ما وراء القنطرة ؟"

"ثم إن الفرقة التي سيوكل لها نسف القنطرة وجب أن تختار بعناية وأن تضم بين أفرادها من هم أدرى بتلك المنطقة"

قال حمزة :

-إن يسمح لي مولاي، ففي قريتي رجال ليسوا أقل مني خبرة في مواجهة الشبح ذاك ...فعباس راعي القرية ينتقل بشكل يومي على تلك القنطرة حين يحجم أهالي القرية عن إيفاد قطعانهم إلى خارج القرية، وحينما يداهمنا الشبح، إذ ذاك يخرج عباس الراعي مفتول العضلات إلى القنطرة لاستكشاف العدو، وهي الفرصة التي يستغلها لصيد الأسماك من النهر يستطيع بها أهالي قرية الجبل الصمود فترات الحصار من نصارى المدينة .

حينذاك قاطعه المولى أحمد، وقد اقتنع بكلام الفتى، كما لمس فيه صفات البطولة والشجاعة والاندفاع :

" إنها لخطة محكمة ، إن وظفنا النهر والجسر لصالحنا ، فالنصر بإذن الله سيكون حليفنا ".

وبعد اقتناع الخليفة عبد المالك بالخطة أعلن :
-" إن شاء الله ستتوجه رفقة عشرة فرسان من فرساننا نحو القنطرة ليلا، وليكن عملكم محاطا بالكتمان التام حتى لا ينتشر خبر خطتنا .

تحكي الروايات القادمة من هذا الاجتماع الهام ، أن عبد المالك قطب حاجبيه مندهشا بهاته الفكرة العجيبة ، زاده انبهارا فصاحة الفتى وقوة عزيمته ، وشدة غيظه على هؤلاء المحتلين لأرضه وبلده .

ثم أكمل حواره متجها بنظرة صارمة إلى المحيطين به من قادته :
*" على أن تظل هاته الخطة سرية ، ولا نخبر بها حتى جنودنا ، فلا نأمن عيون البرتغالين من حولنا ، وأنتم تعلمون أن ابن أخينا " المتوكل على أعدائنا " جند مئات المغاربة ليحاربوا بني وطنهم "..

والحق يقال فقد كان رأي " المعتصم بالله " في محله ، فقد أخبرت عيون الشرفاء المندسة حول البرتغاليين، أن المتوكل جمع أكثر من ستمائة من أنصاره ، يطمع أن يسترجع بهم وبحلفائهم عرشه الضائع، وكان من ضمن الذين غرر بهم أحد علماء القرن العاشر الهجري ،رجل ذاع صيته بمجالس العلم التي كان يعقدها ،لكنه سيموت في صف مغاربة البرتغال ، كما كان يحلو للمعتصم تسميتهم..إنه صاحب دوحة الناشر ، الأديب ابن عسكر .

ويبدو أن القدر هذه المرة وقف إلى جانب حمزة بانضمام قائد المدفعية إلى المؤيدين لرأيه ، حيث قال الأغا :
-" إن معي كميات كافية من البارود لنسف القنطرة ، على أن نقوم بأمر هام وهو تحصين قواتنا من أي هجوم سريع من أعدائنا ."

حينها تدخل " أبو مروان " بهدوء ، ليدلي بفصل الخطاب :
*" أما أنت يا حمزة ، فإني أشكرك باسمي ونيابة عن كل المغاربة ، عقلك المتبصر قادنا إلى هاته الحيلة الحربية .. وأرجوا أن يجمعك الله بأهلك قريبا، وتزول الغمة عن قريتك وباقي البلاد."

وختم " أبو مروان " حديثه :
-" والآن، بعدما حصل شبه إجماع على خطتك تلك ، فسننتقل بإذن الله إلى تطبيقها على أرض الواقع ، وبالسرعة والإتقان اللازمين ،

فربما بعد يوم أو يومين ستطل علينا جحافل الصليبين من خلف الوادي."

ثم خاطب الجميع :

-"بارك الله لكم في سعة صدركم ، وإننا نتفوق عليهم بقوة إيماننا ، وعدالة قضيتنا ، وخبرتنا بأرضنا ، لذا علينا تجهيز " فرقة البارود" وسيتكلف بها قائد المدفعية ،وستكون أنت يا حمزة ضمن أعضاء الفرقة ،واختر من أهل قريتك من هم خبراء بالمنطقة وتضاريسها ... وأوصيكم بالسرية التامة ، وبذل أرواحكم ثمنا لإنجاح مهمتكم ، لأن فرقتكم سيتعين عليها تنفيذ مهامها خلف ظهر العدو ، واختاروا الوقت ليلا حالكا ، وأخبرونا على وجه السرعة بنجاحكم إن شاء الله تعالى "

وهكذا تبلورت الخطة كاملة لدى " فرقة النسف " وكل مراحلها السرية ، فانتهى الاجتماع وعاد الأميران إلى خبائهما ، أما حمزة فذهب لخيمته فرحا مسرورا بتبني خطته وازدياد حظوته عند الأخوين الشريفين.

أما أخبار جيش " دون سيباستيان" فقد وصلت أولى إشارات العيون التي رصدها " عبد الملك وأخوه " تقول أن الحملة الكبرى تتقدم ببطء بعد أن قضت حوالي عشرين يوما ما بين أصيلا و مشارف النهر ،لا يخلوا مسيرها من طقوس كنسية واحتفالات ماجنة ، ومبارزات استعراضية يشعلها الفرسان المتحمسون للقتال..وبالخصوص هؤلاء المنحدرين من أعرق العائلات النبيلة ...ودون هذا وذاك رسائل تحفيزية لنائب البابا الأعظم المرافق للجيش الزاحف .

أما " دون سيباستيان " فقد انطوت عليه استفزازات " عبد المالك المعتصم " التي وجهها له في آخر تراسل بينهما ، حتى يبتعد عن البحر وهو رمز تفوق البرتغاليين وفخر قوتهم ، كان الملك الشريف يدرك ببصيرته هذا المعطى ، لذا استدرج عدوه بالقدوم إلى المكان الذي سيختاره الأشراف كمسرح للملحمة المنتظرة ، وقد أصدر ملك البرتقيز أوامره بالتحرك من أصيلا ، ضاربا عرض الحائط

بتوصيات خاله إمبراطور أوربا " فليب الثاني بن شارلكان " والذي حذره مغبة المجازفة في البر البربري ، وأوصاه أن يكتفي بالاستيلاء على كل سواحل المحيط.

إن هذا السير البطيء للقوات الغازية قد وفر للأشراف مزيدا من الوقت للتعبئة باسم الجهاد ، وقام الأولياء والفقهاء والمتدروشة منذ الخروج الأول من مراكش ،بالطواف على الأسواق وفي المواسم يشحذون الهمم، ويعقدون العزم لمواجهة مصير تعيس بات وشيكا.
وكان على رأس هؤلاء الشيخ " أبو المحاسن يوسف الفاسي " الذي بلغت شهرته الآفاق ، أبدع خطبا في الجهاد وألف كتبا يبين فضل منازلة الأعداء ، ولسوف يبلي البلاء الحسن عند نشوب القتال.
وقد كانت تلك القباب القرميدية ذات السقف الأخضر حيث يرقد سلطان الأدارسة مكانا لإصدار الفتوى التي تحرض على نصرة الملة والوطن ، كمنارة اشتعلت بالخطب النارية تلعن تارة ، وتدعوا تارة أخرى .

أما قرية الجبل والمداشر المحيطة بها فلم يتوانى الأهالي في تقديم الأكل والشراب للجيش المرابط بقربهم ، بل بالغت قرية حمزة في إكرام ضيوفها حينما علم الناس هناك بالمكانة التي أضحى عليها الفتى ، وتعبيرا عن شكرهم لمن جاء يخلصهم من الشبح الجاثم على صدورهم ، وقد عبرت الغالية – جارة العربي ولد مي حليمة – عن ابتهاجها بهذا المستجد ، حين قالت لحمزة :
- " لكم تمنيت يا بني أن تكون جارتي الصافية معكم في هذا الجيش ، حتى يجتمع شملكم ، فآخر أخبارها كانت تقول أنها اتجهت لفاس للبحث عنك ،وها أنت عدت ، ونأمل في العلي القدير أن يعيدها إلينا أيضا "

امتلك حمزة رباطة الجأش ليخبرها أن القادم أفضل ، وأن الكل عازم على تحقيق النصر ، وأنه لم يفقد الأمل في لقيا والديه قريبا.

ولما انبلج صبح الأحد وأنارت أشعة الشمس الحارة في هكذا صيف ، أطلت معها مقدمة الحملة البرتغالية بقدها وحديدها وخيلها على" قرية الجبل" ، أخبر عبد المالك بوصول الأعداء فأعطى

أوامره بألا تحدث جلبة يعرف من خلالها البرتغاليون أن هناك من يترصد لهم.
فعل ذالك الملك السعدي حتى يعطي لجيش " سيباستيان" الأمان الذي يمكنهم من عبور القنطرة ، للغاية المعدة سلفا.
وما أن عبر الجيش المتحالف بالكامل قنطرة وادي المخازن حتى أظهر له الأخوين الشريفين نفسيهما وتجهيزاتهما. هذا الذي جعل الجيش البرتغالي يعسكر قريبا لقنطرة العبور .
هلل حمزة بهذا النزول ، فقد يتماشى مع خطته المرسومة ، رغم أنه أدرك بعد مقارنته بين الفريقين أن أعداءهم متفوقين عدة وعتادا ، وأن هؤلاء ما جاءوا للغزو إنا للامتلاك .امتلاك بلد ظهرت بوادر ضعفه منذ زمن بعيد.
وقد استهلك العبور معظم النهار ، لذا آثر القادة البرتغاليون التريث إلى الغد لإزالة هؤلاء الذين من الممكن أن يعرقلوا مباركة الرب، في اكتساح ما تبقى من المغرب.
وهكذا قال لهم ملكهم الشاب :
*" لننزل هنا في معسكرنا ، ونأخذهم صباحا "
رد المتوكل ، مستشهدا بآية كريمة :
*" وساء صباح المنذرين " (الآية **177** من سورة الصافات). وكان يتوجه بالكلام إلى أنصاره الكثر من حوله.
أما مبعوث البابا " غريغوريس الثالث عشر " الذي أرسله لمساندة " حملة الرب الصليبية" وكان مغامرا شجاعا يدعى الكاردينال " وليام جيمس" فقد طلب من الملك وحاشيته أن يتم إعلان مراسيم تعميد الجيش وأنه سينقل ما جاء على لسان خليفة القديس بطرس لهم :
-" إن الرب سيغفر خطايا كل من سيدافع عن الصليب المقدس في الملحمة ، الذين أنتم مقبلون عليها".

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وما إن حل المساء ليومه الأحد ، عشية المعركة حتى تحركت " فرقة النسف " تحت قيادة قائد المدفعية ، يرافقه ستة خبراء ، هم تركيان و أندلسيان والمامون الفيلالي وحميد الأسير، في حين استقدم حمزة معه تسعة رجال أشداء من قرية الجبل ، كان من بينهم:

" عباس الراعي مفتول العضلات ".

عباس والذي بدا أن العمر تقدم به ، وخالط المشيب شعر رأسه ولحيته ، لكنه مازال يحافظ على الكثير من قوته ، ومعها ازدادت نسبيا أعداد ماشيته بعدما قلت نسبيا هجمات نصارى المدينة علي مجال رعيه في أعالي التلال .

وهما في الطريق، يحاور عباس الراعي مفتول العضلات الفتى حمزة :

*" لقد علا شأنك يا حمزة ، حتى لكأنك ملازم لمولانا السلطان (يتبع كلامه بقهقهة عالية سمع دويها أفراد الكتيبة).

رد حمزة :

" ومعها سيرتفع شأن قريتنا المثخنة يا عم عباس.."

ثم أكمل كلامه وهو يحث خطى فرسه للإسراع :

*" وبوصول جيش مولانا ، وعزيمة المجاهدين ، لن تصير بعد الآن مثخنة ".

أجاب عباس الراعي مفتول العضلات :

-" كم أتشوق لغرس أسناني ومخالبي في أجساد هؤلاء النصارى الملاعين ، فكم من شاة كانت في ملكيتي استولوا عليها (قالها وقد اصطكت أسنانه من الغيظ والحنق ...)

سر عباس الراعي مفتول العضلات بهذا الحوار القصير ، كما شكر حمزة على اختياره له ضمن الفرقة المتجهة لنسف الجسر الوحيد على النهر الهادر.

وقد انسلت الفرقة تحت جنح الظلام مبتعدة عن مرمى عيون أعدائهم حتى لا تسمع جلبة خيولهم.

وما هي إلا سويعات من الوقت حتى وصلت الكتيبة إلى هدفها ، بعد أن دلهم عباس الراعي مفتول العضلات على أقصر الطرق وأكثرها أمنا.

ولما تأخر الليل تقدم قائد المدفعية يستكشف القنطرة ، ولاحظ أنها متينة البناء ، وقد تم تبليطها بالتراب الطيني المستخرج من طمي النهر ، وجلبت لها الحجارة الصلبة من الجبال القريبة ، وإن كانت آثار عبورها من طرف الجيش الجرار بادية ، فبصعوبة صمدت أمام مرور الفرسان والمدافع وأدوات الحصار الأخرى التي ترافق الحملة البرتغالية ، وهذا التصدع استفادت منه " فرقة النسف " في عمليتها التفجيرية.

بعدها أعطى القائد إشارته للفرقة بحفر ثقب كثيرة بمعاولهم تحت سواري الجسر وبعد ذلك ملئها بارودا وذخيرة بالقدر الذي لن تصمد معه حين إضرام النار.

خاطب قائد المدفعية جنوده قائلا :

-" إن الوقت يتقدم وليس في صالحنا التأخر ، فلنسرع رحمكم الله "

-" وإن جنح الظلام هو الضامن لنجاح مهمتنا ، فلا تأتي خيوط الفجر الأولى وإلا نكون قد نسفنا القنطرة بالكامل ."

كبر عباس ، ثم قال :

*" ومعها ننسف حلم هؤلاء الكفرة بالعودة إلى بلادهم أحياء ."

كانت كلمات عباس الراعي مفتول العضلات تضحك حمزة ومرافقيه على ما فيهم من جد ، وما أنيطت لهم من مسؤوليات جسام .

وحينما ملئت جل الشقوق والثقوب قال قائد المدفعية :

*" لقد أنهينا الشق الأول من المهمة المنوطة بنا ، علينا الآن أن نبتعد بمسافة تكون كافية لنا حتى لا تصيبنا الشظايا المتطايرة من التفجير ، وفي نفس الوقت تبلغ بنادقنا مرمى ثقب البارود "

وخطتنا هي :

" أن نصطف في خط مستقيم ، ثم نطلق النار على السهام المشتعلة في الشقوق حتى نصيب الهدف إصابة واحدة " .

ولحسن الحظ نجحت فكرة قائد المدفعية، إذ سرعان ما دوت تفجيرات هائلة انهارت معها الأحجار والأتربة فوق مياه النهر الجارف ،ولما سمع قادة الحملة البرتغالية أرسلوا استطلاعاتهم للقبض على الجناة ، غير أن الظلام المخيم وسرعة فرار الكتيبة جعلت المقدمة الاستطلاعية لجيش البرتغال تكتف فقط بالنظر مرعوبة للجسر الذي يتهاوى على مرمى من أعينهم.

ويبدو أن حدث زوال القنطرة لم يعرف به كل الجيش الغازي بعد أن لجأ قادتها إلى طمس الخبر الصاعق الذي قد يحطم من روحهم العالية في القتال. غير أن سيباستيان والمتوكل أدركا معا بعد أن وصلتهما أخبار القنطرة ، أن تحقيق النصر في الغد صار أمرا حتميا ، وإلا فلينتظروا الكارثة بعد قطع طريق الرجوع الوحيد نحو أصيلا.

ولم يدرك الجيش البرتغالي معنى تلك التفجيرات المدوية في عمق الليل إلا حينما أظهر ضوء النهار علم الأشراف الشديد البياض وقد نصب تعبيرا عن نجاح " فرقة النسف" في مهمتها فوق ما كان يعرف قبل ليلة ب:

"الجسر الذي سيفتح لهم أبواب بلاد البربر"

ويبدو أن الصباح الباكر سيعلن عن اجتماع عاجل دعا إليه قادة دون سيباستيان حول خبر هدم المغاربة لجسر العبور ، ومدى تأثيره على معنويات الجيش ، وبذالك خلص الاجتماع على ضرورة التعجيل بهجوم كاسح بعد طلوع الشمس حتى لا تخور معنوياتهم، حينما ينتشر كالنار في الهشيم خبر التفجير غير المتوقع، خاصة وأن الجيش لا يضم فقط البرتغاليين لوحدهم حتى يتماسكوا في الاستماتة عن ملكهم، فسيباستيان يدرك أنه استقدم معه مرتزقة ألمان تجاوزوا الثلاثة آلاف ، ومثلهم عددا من الإسبان والإنجليز، وكثير ممن استجابوا لنداء البابا كانوا تجارا ومغامرين لا هم لهم إلا الطمع في الغنائم...

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أكملت فرقة النسف" مهمتها وتسللت نحو الطريق المبتعدة عن مرمى العدو تفاديا للملاحقة ، سبحوا عبر النهر بخيولهم بعيدا عن معسكر البرتغاليين ، ثم استداروا إلي حيث يرابط جيشهم ، حينها استقبلتهم قيادة الأشراف بعدما أدرك الأخوين نجاح مهمة الفرقة من سحنات وجوههم البشوشة .
خاطبهم " أبو مروان" بعدما قص عليه قائد المدفعية قصة النسف :
" إن هذا اليوم سيكون يوما من أيام الله مشهودا ، وما النصر إلا من عند الله ، لكننا لا بد أن نأخذ بالأسباب ، وقد نسفتم بعون الله جسر العودة لهؤلاء المغتصبين ..وما قمنا بذلك إلا لبث الرعب في قلوبهم المغرورة ، ولكي نقاتل نحن كذالك قتال من لا يرجوا نجاة "
وقد قيل : " إنما الحرب خدعة "
-" وهذه أولى بشارات خذلانهم وبوادر نصرنا ، وقد بتنا على تعبئة تامة ، ثم توجه إلى الجيش مخاطبا " :
*" يا أيها المجاهدون ، حينما تصبحون كبروا ثلاثا ، واستعدوا لعدوكم، وحاربوا من أجل إعلاء دينكم، وقاتلوا دفاعا عن وطنكم .... ولا تحرك إلا بإذن قادتكم "
بات الولي أبو المحاسن ليله يبتهل للبارئ هناك في خيمته، وقد اصطف الناس مجموعات يدخلون عليه للتبرك من دعائه ، ولاقتباس كلمات من شفاهه لعلها تكون عونا لهم في ذاك الغد الطويل الذي ينتظرهم .
أما حمزة فتارة يشحذ سيفه ، وتارة أخرى ينهض إلى بندقيته ، ينظر فيها هل هي على أتم الاستعداد ، للانقضاض .
كان يتذكر قصص جدته ، ويستحضر رعبه وهو بعد صبي من " شيخ النهر " ..وتمر كلمات " شيخ الجبل" بين عينيه ... فيقول في نفسه :
- إنها البشرى يا حمزة ، وغدا ستحقق كفلق الصبح .

الفصـل الخـامس : ريـاح النصر قادمة.

وفي صبيحة الإثنين**30** من جمادى الثانية للعام **986** للهجرة ، و الذي يوافق**04** من شهر آب **/**أغسطس للعام الميلادي **1578.** جاء اليوم الذي لطالما انتظره حمزة ، وأهالي قرية الجبل ، يوم إزالة " الخوف " بعد أن غادر القرية جيل الخوف ، كما لقبته ذات يوم الجدة مي حليمة ، جيل لم يغادر مداشره إلا حينما يحمل على النعوش ، جيل اعتقد اعتقادا أعمى بأن شيخ الجبل يحميهم من الفناء. بسلطان الدعاء ، وبركة الولي هي التي تجلب قليلا من القوة والتي بواسطتها كانوا يصدون نسبيا هجمات " شبح النهر الغادر ". وها قد حل محله " جيل الأمل " جيل حمزة وأقرانه الذين غادروا قراهم للعلم ومعرفة الآفاق وتتبع خطى ذاك العدو حتى إدراك مكامن قوته و مواطن ضعفه ، هذا الجيل الذي كتب له أن يطرح رداء الخوف هناك على ضفتي النهر الملتف بالمداشر.

وما هي إلا أن أشرقت الشمس ، فوقع ما توقع الملك الشريف ، إذ دوت على المعسكر نيران مدافع البرتغاليين من كل صوب واتجاه ، فرد المغاربة بالمثل ..وبدا أنها حرب مدافع تلوح في البداية ، غير أن حجم الخسائر في صفوف الشرفاء كان يحد منها سفح الجبل المنترسين به ، وهكذا دوى صوت البارود في كل مكان في الساعة الأولى للمعركة المندلعة لتوها .

وقد لوحظ التفوق الواضح لمدفعية دون سيباستيان ، فنيرانها كثيفة ، ومدى تصويبها وصل إلى آخر خيام المغاربة ، أما المدفعية المحلية التي استقدمت معظم قطعها من أتراك الجزائر، فرغم أنها أقل فعالية من نظيرتها الأوربية إلا أن التمركز الإستراتيجي الذي وضعه عليها قائد المدفعية منحها هامش المناورة والصمود.. صمود الأبطال ضد الضربات الأولى للجيش المتحالف .

وقد اعتقد قادة دون سيباستيان أن نيران المدفعية أدت الواجب ، ثم خفت أدخنة المدافع لكلا الجانبين لتناقص الذخيرة ،خاصة لما لوحظ تحول معسكر الجيش المغربي إلى سحابات متصاعدة من الغبار والدخان ... لذا أصدر البرتغاليون أوامرهم لرماة البنادق

بالتقدم الكاسح ، قصد تحويل المعركة إلى ساحة حرب مباشرة ، وقد اصطف المشاة في صفوف طويلة يوجهون بنادقهم لخصومهم وهم يقتربون أكثر من أي وقت مضى من صفوف جيش الشرفاء .

والمعلوم أن الساعة الثانية للمعركة كانت المواجهة فيها قد تحولت إلى معركة بنادق بين الجانبين، وقد تكافأت فيها موازين القوى نسبيا مع ارتفاع كبير في صفوف الضحايا مابين قتيل وجريح يصرخ من هول الحرائق التي اشتعلت في جسده.

أما حمزة فلم يدخل المعركة بعد وهو المشرف على إحدى كتائب الخيالة التي كانت كلها تحت قيادة " الأمير أحمد " ففرقته ما تزال مختبئة تتسلل ببطء نحو مؤخرة جيش البرتغال بعدما أوكلت لها مهمة جسيمة .. ينتظر حمزة إشارة من قائد الفرسان حتى تقترب فرقته من معسكر العدو للدخول ساعتها في معمعة المعركة.

بدا أن التسليح الجيد للبرتغاليين وحلفائهم قد رجحت كفتهم مرة أخرى فلوحظ هجوم شامل على معسكر الشرفاء ، حينها ركب " المعتصم بالله " فرسه الأبيض وانطلق كالسهم- على الرغم من مرضه الواضح – نحو الأعداء غير مبال بالموت ، مقتحما الصعاب يكبر ، فيتبعه الشيخ أبو المحاسن عازما على صد الهجوم الكاسح .

وهاهي المسافة الفاصلة بين المعسكرين تتقلص بعد التحول الثالث الذي ستقبل عليه المعركة في الساعة الثانية على انطلاقتها ، بانتقالها إلى" مواجهة التحام " حينما اصطف المجاهدون يتبعون ملكهم " عبد الملك" لصد المهاجمين .

إنها اللحظة التاريخية التي كان ينتظرها حمزة :

الالتحام في قتال مباشر مع من اختطفوا والده العربي ولد مي حليمة ، كما أسروه هو في قلعة أصيلا الباردة ، بل واختطفوا الكثير من أهل قريته " قرية الجبل " ..وهم أيضا من يحتجزون في سراديبهم حبيبته الأندلسية " شمس –الضحى " ولا يدري أي مصير آلت إليه الفتاة..

مرت إلى حدود اللحظة حوالي الساعتان من المعركة الحامية الوطيس ، بدا فيها التفوق اللوجيستيكي للبرتغاليين واضحا ، في حين حافظ معظم الجيش المغربي على رباطة جأشه ، وتمركزه

خلف الأشجار والأحجار الكبيرة ، ثم حصل توازن نسبي بعد الانتقال للمواجهة بالبنادق و تدخل فرق الرماة المدربين ، أما وإن الساعة الثانية قد شارفت على نهايتها فقد كان الدور قادم على الفرسان ليحسموا المعركة إلى أحد الطرفين ...الطرف الأكثر مناورة .

حينها أعطى " عبد الملك " آخر إشارة لقائد فرسانه ،أخيه " الأمير أحمد "بتنفيذ الخطة المعدة سابقا لحسم معركة المصير ، وهي إشارات كانت كلها باليد دون الكلام ، " فأبو مروان المعتصم بالله " كان في لحظاته الأخيرة نتيجة الإنهاك والمرض الذي ألم به ، وقد عجلت الأوجاع والآلام الحادة بنقله على جناح السرعة إلى خيمته ، بعدما شوهد من طرف حجابه يكاد يتهاوى من على فرسه .

وما هي سوى لحظات حتى ترجل الفارس عن جواده بعدما خطط لفصول المعركة ودبر عدتها وصد الهجوم الأول للأعداء ... يموت "عبد المالك المعتصم " تاركا المعركة في ساعتها الحاسمة ، يفارق الملك الشريف جيشه وهو يشير بسبابته إلى فمه آمرا حاجبه بإخفاء أمر موته ، حتى تبقى طي الكتمان.

كان وهو يغادر يدبر معركته من خلف سكرات الموت ، يعطي أوامره بيده ، فلا يدري حاجبه هل :

- مد أصبعه ليختم بالشهادتين آخر كلامه ..

-أم إن الموت عاجله وهو في آخر أنفاسه، فكانت شهادته :" أن التزموا الصمت ، حتى ذاك الوقت".

غادرنا " أبو مروان " مثل ما غادر الآلاف من ضحايا المواجهة الطاحنة التي تدور رحاها على مشارف النهر الهادر ، " وادي المخازن "

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

نحن الآن في الساعة الثالثة من المعركة الكبرى التي تشتعل لهيبا كاشتعال صيف آب أغسطس الذي تدور في زمنه .. يتلقى " الأمير أحمد " خبر رحيل خليفة الأشراف بسرية تامة ، يعتلي القيادة العامة ، فيصدر أمره إلى الفرسان لإنجاز الخطة المتفق عليها مع قادته الميدانيين .

حينها يلتف حمزة برفقة كتيبته من الخيالة على مؤخرة جيش البرتغال الضخم ، فينسل عناصرها إلى مكان الذخيرة النارية للعدو ، فيتمكن الراعي عباس مفتول العضلات من الوصول إلى إحدى الخيام التي تضم مخازن البارود ، وبشجاعته المعهودة يضرم النار في تلك الذخيرة الحية .. فتشتعل نار هائلة خلف خطوط العدو ، تستعر النار في باقي الخيام المجاورة ، فيدب الرعب في مؤخرة جيش سيباستيان ، في المكان الذي خصص للنسوة من نبيلات العائلة المالكة وباقي الأسر العريقة ، تمتزج صرخات النساء مع فرقعات البارود ، حيث صار المعسكر البرتغالي أشبه ببركان انفجر لتوه.

يستدير الخيالة البرتغاليون نحو مكان الانفجار فيحدث الالتحام الرهيب بينهم وبين فرسان الأشراف ، حينها ينقض حمزة كالصقر على خصومه ، من على فرسه الأدهم يستل سيفه يطعن يمينا وشمالا ، يقتحم بفرسه مواطن الموت غير مبال بالعواقب .

- أو ليست هاته هي اللحظة التي طالما تمناها وهو أسير يهان عند جلاديه السابقين !!

- لم لا يقاتل قتال الأبطال ؟ ....وقد عاش أيامه التي مضت على وقع المعاناة المريرة مع " شبح النهر"؟؟.

هذه الساعة الثالثة بدا أنها ستكون الحاسمة ، فالالتحام ضار ، وأصوات المجاهدين تكبر ، وحناجر الرهبان تبشر الموتى بالنعيم ، وبين أولئك وهؤلاء صوت البارود يلعلع فوق رؤوس المتحاربين ... وحمزة وعباس الراعي مفتول العضلات يخترقان برفقة الفرسان مؤخرة جيش البرتقيز والطليان والإسبان والألمان ...و الأمير" أحمد " يركز بمدفعيته على مقر الملك البرتغالي الشاب دون سيباستيان .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

معارك كثيرة داخل معركة كبرى ، لكل غايات وأهداف... وإن لم يبلغها اليوم ،
- فمتى ؟؟

قريبا من الناحية التي قصدها حمزة بخيله ، أصوات تنادي بالعربية ، تصيح في المعركة :
*" تقدموا يا أنصار المتوكل ،تقدموا لاسترجاع ملككم المسلوب "
إشارات سمعها حمزة ، وأدرك للوهلة الأولى أنه في مواجهة مباشرة مع الفرقة المغربية التابعة لابن أخ الخليفة " محمد المتوكل" ذاك الذي استنجد بطاغية النصارى لأجل استرجاع ملك زائل .
قال حمزة في قرارات نفسه: " تالله لن يغفر لك بني وطنتك خيانتك هذه."
واقتحم الفتى مجاهل المعركة بغيظ كبير على المتوكل وفرقته الملعونة ، وما هي إلا لحظات حتى تبادر إلى مسامع حمزة أصوات نسائية هذه المرة ، يبدو أنها ترد على كلام فرقة المتوكل المخلوع ، وبنفس لغتهم :
-" لا نصركم الله ، يا أعداء الوطن والدين .."
تصيح امرأة أخرى :
-" أتتضمون للنصارى ضدا في المسلمين ؟؟؟ ويلكم من خونة..."
بدا أن هاته الكلمات الأخيرة زادت من حماسة الكتيبة ، وهاهو حمزة قد نزل من فوق فرسه، وصار يكيل الذبح والتنكيل لمغاربة المتوكل ، يعينه عباس الراعي مفتول العضلات ، هذا الذي حمل في يده أحد المعاول وانطلق كالصقر الجارح ينقض .. يهشم رأس كل من اقترب منه ، فالراعي البسيط لم يكن متعودا على مهارة السيوف ، بعد أن خمدت النيران البرتغالية بحكم الخطة المحكمة التي نصبها لهم المغاربة وقضت على ذخيرتهم النارية ، وهو المسار الذي يفضله عباس الراعي مفتول العضلات .. وهاهو يحصد رؤوس أعدائه بمعوله كما يفعل مع الحشائش الضارة بحقله

الصغير ...هذا الذي أضحك حمزة وهو يلتفت متعجبا بما يشاهد من بطولات رفيقه.

غير أن حمزة أهمه موضوع النسوة العربيات ، فحاول الاقتراب منهن قدر المستطاع ،ووجد هذا المشهد العجيب :

- النسوة اللاتي كن يصرخن بأعلى صوتهن في وجه جنود المتوكل استدرن إلى خيام النسوة البرتغاليات بعدما حاولن منع العربيات من تثبيط عزيمة الجنود ، ثم اشتبكن معهن بالأيدي والخناجر ، بدا كأنها قضية تصفية حساب ، وقد حان وقت العقاب.

ويا لحسن طالع الفتى حمزة ،إذ باتت عيناه في خير يوم منذ ولدته أمه ، كان ذاك حينما لمحتا وجها مألوفا لديه ، عينين بلون كان قد رآهما الفتى من قبل ..

- أتكون شمس – الضحى !!

- إن لم تكن هي ...فواحدة تشبهها تماما !

وهو يقاتل بضراوة ، يواجه الموت فيفر منه هذا الأخير في مرات عديدة ، كانت إحداها حربة مصوبة نحوه بإحكام ،وقد استهدفته شخصيا ، غير أن عباس الراعي مفتول العضلات صاح في وجه رفيقه :

-" حمزة ...انبطح أرضا ..إنها في اتجاهك مباشرة .."

لكن عقل حمزة بدا وكأنه توقف عن التفكير في المخاطر لحظتها ، هو يشعر بحلم جميل يقترب منه، لسان حاله يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني
وبيض الهند تقطر من دمـــــــي
فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا
لمعت كبـــارق ثغرك المتبسم .

- كيف يصل إليها ؟؟

- كيف يتأكد من أن الفتاة هي نفسها شمس ؟؟

- كيف يصدق عقله ...ما صدقه قلبه !!

إن غبار المعركة يحجب كل الأفق ، وصوت النار يدوي في آذان المتحاربين ، وصليل السيوف والخناجر لا تترك لحمزة التأكد من

ذلك الصوت الذي سمعه لتوه ، وقد غاب عن مسامعه بعد فراره من أصيلا منذ سنين خلت .
والحق أن الفتى لم تغب عن باله شمس-الضحى ، ومن حين لآخر كان يتذكر بفخر ما قامت به اتجاهه ، لولى مساعدتها له، لما كان حاضرا هنا ، يأخذ ثأره بيده ، ويعض على النصر بنواجذه ..
مرت لحظات اعتبرها حمزة ساعات لا تنتهي ، اختلطت عليه حينها مشاعر السرور والفرح لقرب تحقق إحدى أمانيه ، حتى ولو في ظرف استثنائي ، والمتمثل في نشوب هاته المعركة الطاحنة التي مضى منها إلى حدود وصول حمزة وفرقته لخباء نسوة البرتغال أكثر من ثلاث ساعات ، هو ذاك جو الحرب يا حمزة .
- أو ليس قديما قد قيل :
" إن بين الحب والحرب حرف يفرق ، وغايات تقضى ، ومصير تصنعه إرادة العاشقين ، أو صلابة المتحاربين ..."
ولعل قصص أشهر العشاق بدأت بحرب وانتهت بحب ، أو حدثت القصة معكوسة تماما ، نظرة عشق قادت إلى نشوب معارك ، أحرقت بسببها قرى وهدمت أسوار مدن .. أولم يخص فارس العرب عنترة معاركه ، وزاده فيها شيئين اثنين :
- رمحه السمهري.
- وقصائده في حبيبته عبلة .
وما قصة العشق التي جمعت بين الحاجب" أبي عامر" و " الجارية القشتالية " ببعيدة عن حمزة زمانا ولا مكانا ، بعد أن طارت بها الركبان ، وحملتها قصص النازحين من الأندلس الذين قصدوا فاس وتطوان والشاون وغيرها من حواضر المغرب .
والأكيد أن حكايات العشاق هاته كان يبرع فيها الحكواتيين هناك في ساحات فاس التي استقر بها لسنين، وأتقنت سردها الجدات للحفدة المتشوقين لهكذا قصص.ولم يكن حمزة
استثناء ، فلطالما روت له الجدة " مي حليمة" ما يسره من حكايات.
والمعلوم أن شمس- الضحى لا تدري هي كذالك شيئا عن احتمال لقيا حمزة ، وحتى هي لم تعد تعرف عنه شيئا ، ولا عن والدها "

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

ابن شرف الإشبيلي " بعد آخر خبر سمعته عنه ، وهي خادمة في بيت عائلة نبيلة هناك بأصيلة ، قلعة النصارى .

أسرت لها يوما إحدى الجاريات أن والدها ابن شرف قد أخذ مع من أخذ إلى ما وراء بحر الظلمات ، حملته قوارب " الكارافيلا البرتغالية " المتجهة نحو المستعمرة الغنية بالعالم الجديد...ولما سألتها شمس-الضحى ، إن كانت تعرف السبب وراء تهجير والدها ، قالت الجارية :

" إنهم يأخذون الرجال الذين سيعينونهم على أمور الزراعة و استخراج الكنوز من تلك البلاد الغنية ، وبما أن والدك موريسكيا ، سيحتاجه القوم للاشتغال في أمور الري وشق الترع التي تبرعون فيها أنتم يا أهل الأندلس..."

وما كادت الجارية تكمل كلامها حتى سالت عبرات حارة من على وجنتي الجميلة شمس، وقد بدا أن خذي الفتاة قد خط عليهما سيف الزمن خطوطه السوداء بعد فقد أهلها ، وفرض الهجرة على كل أهالي الفردوس المفقود..

غير أن الجارية أتمت كلامها :

-" لعلك تعلمين أن أسيادنا لا يقتلون الأسرى ، فما أحوجنا لسواعدهم لتسيير تلك المستعمرات الممتدة في كل أرجاء العالم قديمه وحديثه "...

كان هذا الحوار قد جرى بين الفتاتين في الطريق التي عبر فيها الجيش البرتغالي الشعاب التي أوصلته إلى مشارف النهر ، حيث عسكر هناك .

ولعل فقدان الأمل وشدة اليأس ،من هذا المصير التعس هو الذي دفع شمس-الضحى إلى الاندفاع بكل غضب نحو الاشتباك مع سيداتها السابقات " نسوة البرتغال النبيلات" متحدية لهن ، وفي الوقت نفسه تتمرد على ظروف العبودية التي عاشت فيها منذ وطئت قدماها البحر ذات يوم مشئوم...

وقد حال بين صوت شمس وحمزة فرقة المتوكل التي كانت قريبة من مخازن البارود الذي التهمت معظمه النيران ، وقد صعقت ألسنة اللهب المتصاعدة المئات من فرسان المتوكل البالغ عددهم

حوالي الستمائة فرد ..غير أن الغالبية العظمى منهم كانت هناك في الجناح الأيسر لأسيادهم البرتغاليين.

وهاهو الفتى المغامر يشق وكتيبته صفوف خيالة المتوكل حيث اشتبكت الفرقتان بالسيوف والرماح والفؤوس التي تسلح بها رعاة قرية الجبل وباقي القرى المجاورة لها ، وكانوا قد تطوعوا إلى جانب ابن قريتهم ، عباس الراعي مفتول العضلات يقصد كل من اعترض طريقه من ذوي العيون السود ، يجهز عليهم وهو يزمجر في وجوههم :

*" خونة ..إلى الجحيم .."

أما حمزة فهمه الآن هو الوصول إلى النسوة العربيات لإنقاذهن من شر مستطير ، فربما يلتف عليهم بعض من أنصار المتوكل فيعاجلونهم بسيوفهم جراء تمردهن المفاجئ على الكتيبة .

لكن كيف السبيل إلى ذالك والطريق غير سالكة ..؟

حينها دوى صوت انفجار هائل قادم من إحدى المدافع التركية-المغربية بعيدة المدى ، على مؤخرة جيش البرتغال ، ولحسن حظ حمزة أن النيران أصابت عددا كبيرا من أنصار المتوكل ، ولم يفقد حمزة إلا بعضا من جنوده ، وإن كانت إحدى الشظايا المتطايرة قد أصابت كتفه الأيسر بجرح طفيف استدعت منه أن يقطع جزء من ثيابه ليلفه بإحكام على ذراعه حتى يوقف النزيف ، وهكذا لم تمنعه الإصابة من الاستمرار في تحقيق مسعاه.

استغل حمزة الفوضى التي نجمت عن الانفجار ، وتراجع أعداد جنود المتوكل ، فتسلل إلى حيث سمع صوت المرأة التي ظن أنها صاحبته .

وما هي إلا أن انتصبت أمامه فتاة نحيفة الجسم ، ذات عينين زرقاوين ، ووجه يميل إلى البياض ، ترتدي ثياب الجاريات ، تحمل عصا في يدها وهي تحاول الاختباء من أنصار المتوكل .

صاح حمزة بأعلى صوته –غير آبه بالمخاطر - :

" شمس .... شمس ..

هذا النداء جعل الفتاة تتوقف عن التواري وتلتفت إلى حيث المكان الذي صدر منه النداء .. وهل كان الصوت يقصدها هي بالذات .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وقفت شمس-الضحى منتصبة كالتمثال ، ونظرت بتمعن إلى صاحب الصوت ، فإذا هي تتعرف عليه.
نطقت شفتيها الجافتين باسم حمزة ..
هو أنت إذن؟؟
- رد الفتى : حمدا لله أني وجدتك.. وجدتك أخيرا ..أخيرا يا شمس ...
لم يكن الوقت مناسبا للنظر في عيني فتاته بعد طول غياب ، فالوقت وقت حرب ، والمعركة تحتاج لسواعد حمزة واندفاعاته .. وفوق كل ذلك بقاء شمس-الضحى في هذا الوضع قد يفقدها حياتها ويعرضها لخطر محدق.
بسرعة البرق طالب حمزة رفيقه من أهل قرية الجبل أن يمده بفرسه ، فترجل هذا الأخير وقدم الفرس لحمزة والذي حمل الفتاة على ظهر الفرس،مشيرا إلى شمس أن تقصد تلك الفرقة التي تحمل الراية البيضاء،وأن عليها إذا اقتربت أن ترفع يديها إلى الأعلى حتى لا تخترقها بنادق الفرقة المغربية ، لو اعتقدوا خطأ أنها تحمل متفجرات أو مدسوسة من طرف البرتغاليين .
كان حمزة يتمنى أن يكتب النجاح لشمس-الضحى في أن تصل بر الأمان ، وألا تصيبها نيران أو سهام طائشة ، وإلا سيندم الفتى على أنه تركها تسير لوحدها، دون أن يرافقها ..
- وكيف له أن يرافقها ؟؟
- والمعركة على أبواب الحسم ..
- أيترك فرقة المتوكل تعيد الكرة على كتيبته ؟؟
لم يكن للفتى خيار ، إلا أن يغامر مؤقتا بأروع ما يتمناه :
- طلب الانتصار في الحرب.
- أو التعجيل بسلامة من يحب ...
أما قلبه فكان يلومه على تلك السرعة التي أرسل بها الفتاة الاشبيلية ، لو انتظر قليلا حتى يتمعن في عينيها..
-أما كان عليه أن يسألها أولا عن قصة مجيئها إلى حيث ميدان الملحمة ؟؟؟
قال في نفسه :

-" ما أسرع قلب العاشق على لهفة اللقاء ... وما أن يتم ذالك في أول وهلة حتى نفر من الحب هاربين .(كان يبتسم وهو يخاطب قلبه حتى وشبح الموت يرتمي عليه من كل جانب).

- لكم تمنى أن يكتب النجاح لحبيبته الأندلسية في أن تصل إلى بر الأمان ، وألا تعترض سبيلها المهالك ، فالمسكينة عانت كفاية بعد طرد أسرتها من مسقط رأسها هناك في الأندلس ،فقدت أخويها بعدما احتفظت بهما المملكة الإسبانية ، وما لاقته أثناء عبور المضيق نحو المغرب ، فقدت في عرض البحر والدتها بعد اشتباك القارب التركي مع السفن البرتغالية .. ثم كتب عليها الاسترقاق وهي الحرة ابنة الحرة ...ولربما تحمل قصصا أخرى من المعاناة غابت عن سمع حمزة بعدما فرقتهما الأيام ، وتباعدت بينهما المسافات ..

ولما كتب اللقاء هاهو يخشى عليها أكثر من خشيته على نفسه ..لا يريد أن يفقدها مرة ثانية...

الآن دخلت المعركة منعطفها الحاسم ، فرقة الخيالة المغربية ضيقت الخناق على أنصار المتوكل ، يصدر حمزة أمره لمرافقيه لتشديد الحصار عليهم ، ومنعهم من الهروب شمالا نحو الفضاء الواسع .

صاح حمزة :

" أحصروهم عند مكان القنطرة التي نسفنا "

وهكذا أزيح أنصار المتوكل عن المعركة وفصلوا عن مناصريهم الأوربيين ، واندفعت بهم خيولهم الجامحة نحو القنطرة .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-" أين القنطرة ؟؟" صاح أحدهم يائسا ...
" قال آخر ، وهو يحاول أن يلف لجام فرسه نحو الجهة المعاكسة للنهر :
-" سحقا ...لقد نسفوها نسفا !! "
لم يمهل عباس الراعي مفتول العضلات ذاك الهارب حتى عاجله بضربة معول فلقت هامته ... ساعتها ارتمى العشرات من أنصار المتوكل مندفعين نحو النهر حتى يفروا من هذا الجحيم ، غير أن النهر الهادر كان يجرف أجسادهم بعيدا وهم يصرخون من هول الصدمة .
لا يدري حمزة أين هو المتوكل ؟؟
-لا يعرفه في وجهه .
- لكنه أبصر كوكبة من الفرسان المزركشين بالألوان ، تبدو عليهم مظاهر الترف ، يتوسطهم شاب يرتدي برنسا بني اللون وقلنسوة صفراء ، بدا الرجل كأمير من الأمراء غير متهيئ لقتال، ولا يرتدي لامة الحرب وعدتها..
أدرك الفتى من بصيرته الحربية أن هذا هو:
- " الأمير المخلوع"
فأدار لجام فرسه وأصدر أوامره :
-" دونكم والخائن ... لا نجونا إن نجا."
انطلقت التكبيرات تصدح نحو الكوكبة التي كانت تود الفرار من أرض المعركة بأي ثمن.. وما هي إلا لحظات حتى سمع الفرسان البرتغاليون صيحات التكبير من خلفهم فاستداروا موجهين بنادقهم وسيوفهم نحو كتيبة حمزة ، يودون القضاء عليها وإغاثة حليفهم المتوكل . غير أن كتائب الخيالة المغربية السريعة التي قصدت المكان كانت سريعة بالقدر الذي منعت به الفرسان الأوربيين من تطويق الكتيبة المحاصرة .
ساعتها وفي لحظة ما من لحظات الاشتباك ، أسرع المتوكل ومعاونيه إلى حيث النهر ، يعرفون أي مصير ينتظرهم لو وقعوا تحت قبضة بني وطنهم ، فقد يغفرون للنصراني زلته ويحاكمونه بقوانين الحرب.

أما هم فأي قوانين ستطبق عليهم ؟؟؟
- الموت شنقا .
- الإعدام حرقا.
-أو سيقضون غرقا ...
كل هذا لا يهم ، فما سيقض مضجعهم هو تلك النظرات التي سيرمقون بها ،وذاك التبرؤ منهم الذي سينالونه من كل ذويهم ، حتى آباءهم وأمهاتهم وإخوتهم .
- فلا طعم مر ، أكثر من خيانة الوطن .

تحكي الأخبار التي ستصل حمزة أن المتوكل بعدما يئس من نجاته ، لطم لجام فرسه قاصدا النهر ، مدركا أنه ليس بذاك التيار الذي قد يجرفه ، بل فقط سيبعده من مرمى أعدائه ، ليفر بعدها نحو أصيلا حيث كان يرابط الأسطول البحري لحلفائه البرتغاليين ، والذي يتجاوز الأربعمائة سفينة ، بعدما أبحرت تلك السفن بالحملة البرتغالية من لشبونة نحو قادش فطنجة فأصيلا.

وقد غذى هذا الشعور لدى المتوكل حرارة الصيف في بداية آب أغسطس الحارق ، لذا فثقته في النهر رجحت أن يكون منسوب المياه ضعيفا في هذا الوقت .
لكنه كان واهما ...واهما جدا.

فلم يدري المتوكل حينها أن كل رياح النصر ستصب في جهة عميه "عبد المالك وأحمد" ، وأن النهر قد جاد عليهما بكل سبل النصر ، مقابل استدارته بظهره للمتوكل وجيش حلفائه الجرار.
فقد هطلت لليومين السابقين للمعركة عواصف رعدية أعقبتها أمطار غزيرة بعيدا، عند منابع نهر المخازن هناك بقمم الجبال العالية ، جعلت هاته السيول منسوب المياه يحول :
-وادي المخازن : من نهر هادئ إلى نهر هادر.

ولسرعة ما ظهرت الحقيقة المرة أمام مرآى المتوكل ، والذي شوهد يترنح في مياه النهر ، يصعد مرة وينزل أخرى ، تتقاذفه المياه كمركب من ألواح في عرض البحر المحيط.
-حتى مياه النهر كانت تعاقبه على فعلته الشنيعة .

وما هي سوى مدة يسيرة حتى تمدد المتوكل المخلوع فوق مياه النهر قريبا من مكان القنطرة التي قصدتها فرقته للنجاة ..وما من نجاة .

ولسوف يحتفظ النهر بذاك الجسد ..فربما لا زال القصاص لم يحن بعد ، حتى بعد فراق الروح لتلك الجثة الطافية فوق المياه الزرقاء.

والحقيقة أن ما تبقى من فرسان المتوكل بعد معرفتهم بمصير قائدهم ، وبأن ميزان المعركة مال لصالح الأشراف قد بالغوا في الاستماتة والقتال قتال اليائس، وقد استغرق الأمر للقضاء عليهم تضحيات جسام وتطلب الموقف مزيدا من الخيالة التي دفع بها الأمير أحمد إلى حيث يتمركز حمزة ، أما الفتى الجبلي فشد وفرقته الخناق على ما تبقى منهم ، وسيفقد بسبب بسالة أنصار المتوكل ، رفيقه :

-عباس الراعي مفتول العضلات..

تلقى عباس وهو يحارب بمعوله ، طلقة نارية مباشرة خرجت من بندقية أحد أنصار المتوكل، أصابته تلك الطلقة في صدره فاخترقت قلبه ، تهاوى بعدها الراعي الشجاع على الأرض وهو يشير بيده إلى ناحية صدره...

أسرع حمزة نحو رفيقه ، لكن الوقت قد فات ، ولما لمح عباس الراعي مفتول العضلات أميره يقترب منه ، نطق بآخر كلامه :

-هل أبليت البلاء الحسن.؟

-أجابه حمزة ، وهو يشده من خده ويسوي جسده فوق الأرض:

-" بل كنت من أبطال المعركة ، وإن النصر لحليفنا ، فنم قرير العين، يا بطل قرية الجبل "

ساعتها أسلم عباس الراعي مفتول العضلات آخر أنفاسه ..سيموت كثيرون من قرية الجبل ، ومثلهم مثل عباس ، أناس بسطاء ، دافعوا عن وطنهم بكل كبرياء ، ولو أن الوطن عندهم يختزل في القرية التي ولدوا فيها .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-ولو أن بموتهم ، لن يذكرهم أحد ، بل ستروى بطولاتهم على ألسنة جيرانهم لمدة من زمن النصر ، ولما يفارق فيها هؤلاء الجيران الحياة ،حينئذ تنسى ذكراهم إلى الأبد.

إن عباس الراعي مفتول العضلات وغيره من البسطاء هم وقود المعارك ، وحطب الحروب ،على أجسادهم تخط أولى بشارات النصر أو بوادر الهزيمة... لكن تخليد الملاحم لا يكون إلا لأهل القلم، وأهل القلم لا تدون أقلامهم إلا سير أسماء محددة من الأمراء والقادة الذين تجري على ألسنتهم الأوامر ، وتطبق على أرض المعارك خططهم ..أو بالأحرى خطط هي في الأصل لأناس بسطاء ، مثل:

*عباس الراعي مفتول العضلات.

ذرف حمزة الدموع مغزارة على رفيقه عباس ، كان الراعي يمثل صوت المستضعفين الذي صرخوا بأعلى صوتهم هناك فوق تلال النهر الهادر ، ذاك الجيل الذي عاش بين فقدان الأمل و لحظة استعادته ، بين الخوف الذي كبر معهم ، والاندفاع في وجه هذا الشبح الذي سطا عليهم وعلى مواشيهم ، لكن كان لا بد من وقود لهاته المعركة .

فعباس مفتول العضلات هذا سيكون من ضمن ضحايا المعركة في صفوف الجيش المغربي ومتطوعيه ، والذي سيتجاوز حوالي **1500** قتيل ، قدمت "قرية الجبل" الكثير من أهلها ممن طالتهم بنادق ومدافع وسيوف البرتغاليين هذا دون أن ننسى الذين اختطفهم العدو طيلة قرن من الزمن .... ولعل "العربي ولد مي حليمة" كان أكثرهم مرارة في نفسية الفتى حمزة .

أما حمزة وفرقته فقد جعلهما مشهد مصرع الراعي عباس، أكثر إصرارا في إكمال:

- حصد رؤوس فرقة المتوكل.

تحكي الروايات القادمة من هناك أن أنصار المتوكل لما دارت عليهم الدائرة ، لم يستسلم منهم أحد ، خوفا من المصير الذي

ينتظرهم، بل قاتلوا بضراوة ، الكثير منهم حصدتهم فرقة حمزة ، أما ما تبقى منهم فاندفعوا هاربين شمالا نحو القنطرة .

ولما وجدوها أصبحت :

- أثرا بعد عين.

و- رسما بعد طلل.

قفزوا كالمجانين في مياه النهر كما فعل ملكهم الضليل ، فكان النهر قبرا جماعيا لهم ، وقد أحصت المعركة أعدادهم التي تجاوزت الستمائة بقليل ... كثير منهم غرر بهم ،وبعضهم ناصر المتوكل لطمع في نيل مكانة في سدة الحكم ، وبعضهم لم يشارك إلى جانب نصارى البرتغال إلا رغبة في شقرواتهم..

بعيدا عن الخطوط الخلفية للجيش المتحالف وبعدما تمت تصفية أنصار المتوكل بكل تلك القسوة ،حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم ، كانت تدور رحى مواجهة أكثر درامية حيث يتواجد قلب الجيش البرتغالي، وفيه تمركز الملك الشاب "دون سيباستيان " والذي كانت تحيط به كل الفرقة البرتغالية المشاركة في الحملة ، والبالغ عددها **12.000** مقاتل من أشجع فرسان أوروبا ،معظمهم ينحدرون من العائلات التي توارثت الفروسية طيلة العصور الوسطى الممتدة لألف عام خلت..

وقد وجهت المدافع المغربية-التركية البالغ عددها حوالي أربع وثلاثين مدفعا - نيرانها أو ما تبقى من ذخيرتها نحو قلب جيش عدوها .وكان " رضوان" الحاجب التركي للملك الراحل " عبد المالك السعدي" يعطي أوامره في ما تبقى من الساعة الثالثة للمواجهة لقائد المدفعية لكي تصوب الطلقات نحو مكان تواجد الطاغية ، وبالفعل حدثت تلك الطلقات المتتالية للنيران المغربية دون أن ترد عليها مدافع البرتغال بما يزعج ، بعد أن نفذت ذخيرتها نتيجة لتدميرها من طرف كتيبة حمزة والراعي عباس.

أسفر هذا الالتحام عن شر مستطير تلقاه البرتغاليون وأنصارهم ، مئات منهم يسقطون صرعى للنيران ، وما بقي على قيد الحياة منهم دافعوا عن ملكهم بكل بسالة ، بل إن " دون سيباستيان" نفسه قاتل

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

قتال الأبطال ، فقد كان الملك قد تلقى تدريبا في فن القتال وخوض المعارك حتى وهو لا يزال صبيا صغيرا في بلاط والده" جون الثاني"... هذا بالإضافة إلى ما تطلبته منه حملته العسكرية من استعداد هناك في قلاع لشبونة الشاهقة طيلة العشر السنوات الأخيرة من حياته ، كان سيباستين يحمل بنفسه على خصومه ، يتبعه أنصاره ليردوا عنه الموت.

- لكن إلى متى ؟؟؟

- فكيف يصمد جيش أفرغت مدفعياته ، وقتل كل أنصاره من فرقة المتوكل ، وفوق ذلك كله قطعت عنه الإمدادات البحرية المرابطة هناك في ساحل أصيلا ؟... فنسف الجسر الوحيد الذي كان من الممكن أن يربطه بأسطوله الضخم جعله كأفعى مقطوعة الرأس تترنح يمينا وشمالا دون أن تؤثر في عدوها.

حصدت مدفعية " الأمير أحمد السعدي" معظم البرتغاليين ، الذين فضلوا القتال مع ملكهم حتى الموت ، وقد عجلت إحدى سيوف المقاتلين المغاربة بحياة " دون سيباستيان" وخر الملك صريعا في ساحة المعركة غير مستسلم ولا مول الأدبار كما فعل حليفه المتوكل .

كان وهو يختار طريقة موته تلك يريد أن يعتذر لشعبه عما بدر منه من تهور وعجلة بالتوغل ما وراء الساحل البربري الآمن للبرتغاليين .

- ليته أخذ بمشورة خاله الملك المحنك " فيليب الثاني بن الإمبراطور شارلكان" حينما نصحه بعدم اقتحام مجاهل إفريقيا !!

- ليته أنصت للمتوكل حينما التقيا لأول مرة في طنجة ،إذ قال له بالحرف:

-"أيها الملك المعظم الأفضل أن نتوجه إلى تيطاوين والعرائش فنحتلهما ونتقوى بهما، ثم نخضع القصر الكبير، وهكذا نأمن على أنفسنا من عدم قطع الإمدادات ونسيطر على كل المغرب الشمالي ...."

كل تلك الوصايا لم ينصت لها الملك الجارف الطموح، مثلما لم ينصت العبرانيون لوصايا موسى العشر .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أما كان عليه أن يعود إلى حكم تلك الوصايا التي حمل منها في سفنه الحربية آلاف المخطوطات من العهد القديم نكاية في يهود الأندلس ؟

لم يحقق " دون سيباستيان" على أرض المعركة أقل أمانيه طموحا :

-أن يرى الصلبان التي حملها نائب البابا تشاهد من أعلى مساجد قرية الجبل وغيرها من قرى وحواضر المغرب..

-أو أن يخط بسيفه من على أعلى مرتفع في المعركة نهاية "لحروب الاسترداد" التي أوصت بها جدته الكاثوليكية " إيزابيلا".

-أو حتى أن يصل قصور فاس وقلاعها كملك محمول على الأكتاف ، يحكم بقبضة من حديد تلك المدينة التي طالما جندت لبلده وبلد خاله آلافا مؤلفة من المقاتلين "الموروس" الأشداء طيلة ثمانية قرون خلت من الزمن.

كل ذالك تحطم فوق" جسر على وادي الموت" حينما سيتم انتشال الآلاف من جيشه غرقى في مياه النهر-المقبرة.

شارفت الساعة الرابعة من عمر الملحمة على منتصفها والفرقة البرتغالية تقاتل بضراوة بعد انتشار خبر مقتل ملكها ، واندفع ما تبقى منهم في ساحة القتال ، غير أن أعدادهم بدأت تتقلص ومقاومتهم علاها الضعف والهوان ، وحمزة أخيرا كشفت له زاوية الرؤيا حين لمح العلم الأبيض سالما ، ذاك العلم الذي قصدته شمس-الضحى .

عرف حمزة أن الفتاة قد تكون بخير ..فما عليه وعلى باقي المقاتلين إلا أن يختموا الفصل الأخير من المعركة لصالحهم .بعدما زال الجزء الأصعب منها :

- نسف الجسر.
- إشعال النار في براميل البارود.
- القضاء على المتوكل وأنصاره.
- تحطيم معنويات أعدائهم بمصرع ملكهم .
- تصفية معظم الكتائب البرتغالية..

فماذا تبقى؟؟ **(يقول أحد معاوني حمزة وقد أثخنته الجراح ، وما هدأت من عزيمته):**

*مازالت فرق المرتزقة الألمان ، و" أنصار يسوع" ممن أرسلهم البابا شخصيا...

ثم صاح حمزة في أنصاره:

-" فلنسقط صلبانهم أرضا ، حتى نجبرهم على الاستسلام".

وقد كانت هاته الأوامر التي صدح بها الفتى عبارة عن خطة محكمة بأمر من القائد " أحمد الشريف" رغبة منه في إذلال حملة الصليب في اليوم الذي سترفع فيه راية التوحيد ، فقد كان يدرك مدى تأثير ذلك على نفوس المقاتلين . ورغم أنه أدرك بأن النصر سيكون حليفه ، إلا أنه على دراية تامة بأن القضاء على مبعوثي البابا سينهي المعركة نهائيا.

لم لا ؟

وقد أحل البابا "غريغوري الثالث عشر" خطايا المقاتلين الذين سيموتون في ساحة المعركة ، وما دام الصوت الذي يذكرهم بهذا " الوعد" واقفا ينادي ، فلن تنتهي الحرب بالطريقة التي يريد الأمير السعدي وقادته...

وما هي إلا نصف ساعة من الزمن حتى قتل مبعوث البابا ، والمئات من الكرادلة والأساقفة الذين يأتمرون بأمره ، ولما أحس البقية من رجال الدين أنهم مستهدفون ألقوا سلاحهم وآثروا الاستسلام حفاظا على أرواحهم.

كانوا يعرفون أنهم سينالون فرصة ثانية في الحياة ، فأموال البابا الطائلة لن تتركهم أسرى لدى ملك المغرب ، وفداءهم سيتم ولو تطلب الأمر مئات من الكروزادو – عملة البرتغال- الذهبية ترسلها روما إلى فاس ليعود هؤلاء الأساقفة إلى عملهم بكنيسة القديس بطرس.

على أن بقاءهم في ساحة المعركة إلى آخر زمنها قد يجر عليهم المساءلة الشديدة من قبل حاشية الأشراف، وقد يفقد الكثير منهم أرواحهم إن شهد على أحدهم ثبوت جرم اقترفته أيديهم هناك في ساحة المعركة ، خاصة بعد أن شاع أن :

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-"رجال الدين المسيحيين كانوا يستهدفون خيام النسوة من المرابطات في صفوف الجيش المغربي ، وأن بعضهم كان يتمادى في الاعتداء على الأسيرات من مغربيات وأندلسيات كن محتجزات يخدمن المعسكر البرتغالي سواء أثناء مسير الحملة أو هناك في أصيلا.

ولسوف تبرأ أو تدين شهادة ما تبقى من تلكم النسوة رقاب الكثيرين ممن كانوا يرتدون القمصان الطويلة المخططة بالأبيض واللون الوردي الفاتح، وربما ستكون الجميلة شمس-الضحى – لو بقيت على قيد الحياة - من تلكم النسوة اللائي سيقدمن شهاداتهن الحاسمة.

الآن سيأتي الدور على المرتزقة الألمان ، هؤلاء العمالقة الجبابرة المنحدرين من الشعوب المتبربرة الجرمانية بالشمال الأوربي ، رجال أشداء ذووا بنية جسمانية هائلة وشعر أشقر،يجيدون ركوب الجياد بسروج خفيفة ، يضعون عليها اللحم النيئ حتى يجف ، ولا يعيقهم الجلوس للأكل عن سرعة الحركة التي عرفوا بها ، كونهم في الأصل قبائل مترحلة نمط حياتها الغزو ولا شيء غير الغزو ... ولعهم في الخمر والنساء لا حدود له ، همهم الوحيد هو :

-الثروة.

وقد استدرجهم دون سيباستيان للمشاركة في حملته العسكرية بعدما وعدهم بالاغتناء الباذخ ،حينما ستفتح عليهم كنوز الدنيا هناك في العدوة الجنوبية للبحر، وذاك كان مرادهم ،فقد ألفوا حياة السلب والنهب والغارات على جيرانهم من القبائل التي تقطن بقربهم، بل إن حملاتهم جابت آلاف الأميال بعيدا عن موطنهم الأصلي ، وقد سجل تاريخهم الحافل بالدماء كيف كانوا يشربون كؤوس الخمر بجماجم أعدائهم بعدما يقتلونهم شر قتلة ..

كل هاته المشاهد حفلت بها سجلات مشاركتهم في القضاء على إمبراطورية روما الخالدة إلى حدود العام **476** من ميلاد المسيح، حينما قتلوا آخر أباطرتها الشاب رومولوس أغستولوس..وكذالك

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

نهبوا روما كما فعلوا مع ثغور أنطاكية والقدس وعكا وصور حينما وصلت جحافلهم إلى أصقاع المشرق ، تلبية لنداء البابا أوربانوس الثاني للحروب الصليبية ذات ربيع من العام **1095**للميلاد .

هم هكذا يرتزقون على حساب رؤوس ضحاياهم ، كلما رأوا فرصة للربح ركبوا أمواجها ، وكذالك كان الأمر مع حملة البرتغاليين حين شاركوا بثلاثة آلاف من المتطوعين استجابة لنداء البابا ومنتهزين لهاته الفرصة التي لاحت في العام **1578** للميلاد.

لم تكن تنقصهم شجاعة ، ولا يضعفهم مشهد الرؤوس المتطايرة ، ولا يهد من خشونتهم منظر الصراخ والعويل والنحيب ، بل إنهم قاتلوا كما يقاتلون دائما :

- سعيا للنهب والسلب .

لكن ذلك لم يكن منه شيء ، بعدما أطبق جيش الأشراف عليهم من كل جانب ،ففضل معظمهم الأسر على الموت في ساحة المعركة ، لم يصدر منهم مثلما صدر عن البرتغاليين من الأسر النبيلة المحاربة ، كان الفرق بين الكتيبتين كبير . فبين من يقاتل في سبيل المجد ، وبين من جاء ليشارك في المعركة لا لشيء إلا للغنائم والأموال والمغامرة في سبيل ارتقاء ثروة سريعة ،حتى بين عناصر هذا الجيش الغازي كانت فوارق دونها الجبال.

تكاد الساعة الرابعة من الزمن الذي مضى تدنو من نهايتها ، والمعركة لا تزال في غبارها ودخانها ، وإن تحولت إلى ما يشبه معارك القرون السابقة :

- معركة سيوف ورماح ومعاول ...

وما زال حمزة يقاتل ، وقد استبدل فرسه بآخر بعدما تكسرت إحدى رجلي الجواد فقد حينها القدرة على المناورة ، أما جنود العدو فلما فقدوا كل أمل في النصر ، وصاروا يهرولون نحو النهر المتدفق ، أو يلقون أسلحتهم ويجثون على الركب ، حينها كان على الفتى أن يقوم بمناورته الأخيرة.

أسرع إلى حيث أرسل شمس-الضحى ، في ذاك الاتجاه الذي اعتقد أنه آمن لها ، كان يحرك لجام فرسه بينما تتصارع نبضات قلبه ، كان يتمنى لو يطير إليها ، ليطمئن أخيرا على سلامتها..

ولما وصل إلى الموقع الذي تنتصب فيه الراية البيضاء ، حتى ترجل من على فرسه وأسرع إلى حيث خباء النساء ، كانت الخباء تعد بالعشرات وتضم الجراحين والدهانين ونافخي الكير ، معظمهن نسوة ، رافقن الحملة السعدية إلى حيث يجب أن يكن ، وأن يؤدين واجبهن جنبا إلى جنب مع الرجال .

الغالية كانت إحدى المرافقات ، تسقي الماء من العيون المتدفقة خلف المعسكر وتأتي به إلى الجرحى ، تحمل القرب على رأسها ، وهي تقول :

- أمولانا ...فيك رجانا.

-أمولانا ..انصرنا على الذي عادانا.

ولما رأت ابن جارتها " حمزة " أطلقتها زغرودة صدحت في الأرجاء ، ورمت بقربة الماء تعانق الفتى ،الذي لم يكن ليعرف من أثر الدماء وتطاير لهيب البارود عليه .. ستشبهه لاحقا شمس-الضحى بالرجل الذي خرج لتوه من فرن للخبز.

قبل الفتى رأس الغالية ، وعاجلها بسؤال الملهوف:

- خالتي ، ألم تبصري في الخباء فتاة نحيفة ، ترتدي ثوبا أزرق ؟؟

-لا يا بني ، لم ألمحها ...من تكون هذه الفتاة ؟

- سأخبرك لاحقا...هل يمكن أن تساعديني يا خالة في العثور عليها ؟

- حالا يا بني ، لننطلق إلى عريفة الخيام ، فلعلها تكون عندها ..

وما إن أشرف حمزة وجارتهم الغالية على خيمة العريفة حتى لمح الفتى تلكم العينين اللتين أضناه البحث عنهما ...

كانت الفتاة تقف بصعوبة ، آثار الجرح الذي أصاب ساقها غائر ، والدماء التي نزفت منها جعلها تبدو في تلك الحال ...من الضعف والهزال.

لكنها وما أن رأت فتى أحلامها ، حتى استوت قائمة ، تحمد الله على سلامته ، وتسأله في لهفة :

- قل لي يا حمزة، هل انتهت الحرب بانتصارنا؟؟

- لا لم تنته بعد ، غير أن معظم النصارى إما استسلموا ،أو قضوا غرقا في النهر .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

-حمدا لله ، خذني معك إذن .
-إلى أين ...وأنت على هذه الحال !!
- أنا بخير ، جرح طفيف أصابني وأنا أنزل من على الفرس ، فلعلني غير متعودة على الركوب(تبتسم في وجه حمزة ، فتبدو أسنانها البيضاء من ثغرها كحبات عقيق في عقد فارسي).
-لكن ، لم تودين الذهاب معي والحرب لم تضع أوزارها بعد؟
كان حمزة يسألها وهو يتمنى فعلا لو اصطحبها معه ، مهما كانت العواقب :
- هذه المرة لن يفترقا :
إما الموت معا، أو الحياة معا .
غير أن الجرح الذي أصابها هو الذي جعله يعيد التفكير ، ويلح عليها في ملازمة خيمة " العريفة "، قائلا لها بلطف :
- يا شمس...ما الجدوى من ذهابك معي؟
حينها صرحت الفتاة بأمر بالغ الخطورة :
- لا بد أن أرافقك حتى ننقذ من الذبح أرواحا بريئة ...نساء ورجال كثر، أجبرهم هؤلاء النصارى على مرافقة الحملة الغادرة .
لم تتمالك الفتاة نفسها أن أجهشت بالبكاء ، فأدرك حمزة خطورة الموقف ، وهاهو يرفع شمس-الضحى فوق جواده ، ثم يمتطيه عائدا بسرعة جنونية نحو ما كان معسكرا لنساء جيش " دون سيباستيان".
سيشعر حمزة حينها أن الحياة قد جادت له أخيرا بوجهها المشرق ، بعدما كاد ينسى كل شيء جميل في حياته الشديدة المنعرجات ...أحس حينها أن روحه عادت إليه ، وأنه يتكئ على سند قوي أعاد له الطمأنينة التي فقدها منذ رحيل جدته مي حليمة.
لكنه مازال حزينا لغياب أي أثر لأمه الصافية ، بعدما فقد الأمل في رؤية والده ، وقد حملق بعينيه في وجوه القادمين من أصيلا لعله يصادف وجها يشبهها... أما قسمات وجه أبيه العربي ولد مي حليمة فلا يعرفه حتى.
كان يأمل لو جرفت والده حملة " دون سيباستيان" إلى هاته الساحة ، فينجو كما نجت شمس-الضحى ، غير أن الأقدار لا تتشابه

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

دائما ، والمتمنيات لا تتحقق على مسرح الواقع إلا في نادر الأحيان، وبعض المصادفات..مثل مصادفة عثوره على فتاة أحلامه.

اخترق حمزة وشمس ما تبقى من صفوف الجيش البرتغالي الذي انحل تماسكه ، وفقد توازنه ، وقتل أبطاله ، وغرق في النهر حلفاءه ، فتبعثرت صفوفهم ، وعلت الفوضى نظامهم ، كانت شمس-الضحى توجه الفتى إلى حيث المكان الذي كانت فيه مقيدة ، لغاية في نفسها.

وما إن وصلت إلى مؤخرة المعسكر البرتغالي حتى أخبرت حمزة عن هدفها :

- علينا أن نتتبع خطى الكثير من الأسرى الذين كانوا معنا في القلعة البرتغالية ، وإني أعرف الكثير منهم:

- صديق والدي العبراني " العم شمويل " ،الذي أسر معنا في عرض البحر..

- زوجين من غرناطة هم كذالك كانوا برفقتنا في البحر وعند الأسر..

- ثلاثة صديقات لي كن خادمات في أصيلا ..

- وامرأة خمسينية العمر ، لا شك أنك تعرفها حق المعرفة.

- أعرفها !!(تساءل الفتى مستغربا)

- نعم، تعرفها وتعرفك..وما علينا إلا النزول للبحث عنها ، وعن أحبتنا قبل أن ينالهم سوط الموت..

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وسط الغبار الشديد ، وحر آب أغسطس الملتهب ، ومن بين أصوات الحرب وطبولها المقرعة ، يبحث حمزة ورفيقته شمس عن أناس غيبهم الأسر عن لقياهم ، ثم قربت رحى المعركة من استنشاق رائحتهم مرة أخرى .

أحيانا تكتب أجمل الأقدار حتى وسط الحرب والدمار ، وما كان بالأمس ليلا قاتما ،تحول اليوم إلى صباح مشرق يكشف عن أروع الأسرار..

كان هذا لسان حال شمس ، وهي تسرق نظرات خجولة من فارس أحلامها ، بعد أن وجدته أخيرا ، بل وقرت عينها بما رأت من بطولاته التي أبان عنها طوال ساعات المعركة ، تمنت لو توقفت الحرب ، لتفسح المجال لحوار كان سيكون طويلا ...طويلا جدا بين قلوب المتحابين.

لكن الأولوية الآن هي البحث عن لم الشتات ، أما حمزة فلم تفارقه عبارة :

-امرأة خمسينية تعرفها وتعرفك.

- أحقا تكون هي ...؟؟

- يناجي لحظتها ربه ، أن تكون أمه ..تلك التي تعني شمس-الضحى.

توغل الشابان في خباء النسوة البرتغاليات ، والتي تلاها النهب والسلب بعد فرار من كن فيها ، خوفا من المدافع المغربية .

ويا لصدفة ما وجد حمزة:

-امرأة نحيفة البنية مربوطة على سارية إحدى الخيام ، وقد بدا عليها آثار التعنيف ، هناك من كان يمنعها من المغادرة ، بل ويبدو أنها ثارت في وجوه جلاديها حتى ربطوها بتلك الطريقة ، وجعلوها عرضة لمصير الموت المحتم.

يسرع حمزة نحوها بجنون ، يهوي بخنجره على الحبل فيقطعه إلى أشلاء ...لحظتها ودون أن يشعر بما يفعل : يعانق المرأة الخمسينية بكلتا يديه ، مناديا بأعلى صوته :

-" أماه...أماه ..... حمدا لله أنك حية "

والحق يقال فقد كان ذاك اللقاء شاعريا جدا ، سالت فيه دموع مغزارة ، تعانق الثلاثة دون أن يدركوا كم من الزمن وهم على تلك

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الحال...كان حمزة حينها يجهش بالبكاء ، بدا حمزة بالنسبة لشمس-الضحى كطفل صغير وهو بين يدي أمه الحنون .

كانت شمس –الضحى هي كذلك تبكي ، بدموع متشابهة في درجة الحرارة، لكن بغايات مختلفة عن غايات حمزة وأمه الصافية :

سالت الدموع من مقلتي الفتاة الإشبيلية لأنها :

- كانت وهي تنظر إلى لقاء حمزة بأمه ،تبكي على لقاء لن يتم بينها وبين أمها ، التي غادرت الحياة ، ورماها البحارة المتوحشون في عرض البحر بلا أدنى احترام لمشاعر زوجها وفلذة كبدها.

- سالت العبرات الحارقة من على وجنتي " ذرة الأندلس" لتذكرها مصير أخويها التوأمين ، بعد أن منعتهما شرطة ملوك إسبانيا الكاثوليكية من الخروج .

- بكت شمس بحرقة أكبر على والدها " ابن شرف الإشبيلي " الذي سمعت أنه نقل إلى ما وراء البحار ، هناك على بعد مئات الآلاف من الأميال البحرية .

- ذرفت الأندلسية الجميلة الدموع سيالة على وطن ضاع ، وفردوس ما عاد موجودا إلا في ذاكرة الذين كتب عليهم " الطرد المر" من المروسكين ... يهودا ومسلمين.

كل ذاك البكاء مزج أخيرا بعبرات السرور ، بعد لقائها بمن كانت سببا في عتقه من نصارى المدينة.

أيقظت شمس حمزة وأمه الصافية من دهشة اللقاء بعد غياب طويل ، قائلة لهما :

- علينا الآن يا حمزة ،أن نخرج والدتك من هذا المكان الموحش ،ولنسرع بها إلى مضارب جيشنا المظفر ، وسنحكي لك قصة لقائنا أنا وخالتي الصافية.

رد حمزة :

- خذا حصاني واذهبا أنتما معا ، وسأرسل معكما أحد رجالي ، فعلي أن أكمل مهمتي في إعانة جيش مولانا على حسم هاته المعركة نهائيا، كما أني أعتقد أن عملية تقييد الأسرى سيستغرق وقتا طويلا ،فأعداد هؤلاء النصارى تملأ الساحة .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أخيرا وبعد انقضاء ساعة المعركة الرابعة بقليل ، وكانت الشمس حينها قد أصبحت في كبد السماء ، أصدر " الأمير أحمد " أمره النهائي:

-"الحمد لله ، لقد نصرنا الله في وادي المخازن".

تلا ذلك تكبيرات ملأت تلال الساحة أفراحا ، وزغاريد انطلقت من خباء النساء لتصدح في الأرجاء ..

وأكمل الأمير أحمد رسالته:

-" أوقفوا القتال ، وقيدوا الأسرى ...كل من ألقى السلاح فهو أسيري "

أمر البراح بأن يصدح بأعلى صوته ، فأعانه في ذلك المامون الذي كان يتقن اللغة البرتغالية وبعض الكلمات من لغات أخرى كالقشتالية .

وهكذا انجلى الموقف في مساء المعركة عن هذا المشهد الرهيب :

- ألوف من المرتزقة الألمان ، والمئات من أنصار البابا ، والعشرات مما تبقى من البرتغاليين يلقون بأسلحتهم ، ويصطفون على مجرى النهر .

أما حمزة وكتيبته وفرق أخرى من المداشر المجاورة لقرية الجبل ، ممن كانوا يتقنون السباحة في النهر ، فقد انتدبهم " الأمير أحمد " لإغاثة الغرقى الذين ارتموا في النهر معتقدين أنهم سيصلون القنطرة المنكوبة ...بعدما حسمت المعركة الكبرى ، ولم يعد هناك تخوف عندهم من بقائهم أحياء .

وستظهر حينها سمات معدن الرجال،ذاك الذي كان عليه " الشريف السعدي " :

-السمة الأولى بإخراج الغرقى الذين مازالوا أحياء أولا ، ثم فيما بعد انتشال كل الذين قضوا غرقا ، وطفت جثتهم على مياه النهر ، نهر ريسانة الهادر.

-أما الثانية فشيمة الملوك التي اتبعها " الأمير أحمد" حينما قدم وفد دبلوماسي إسباني-برتغالي محملا بأموال طائلة يريدون بها افتداء " دون سيباستيان "... غير أن الأمير وهب لهم جسد الملك من دون مقابل، بعد أن عثر على الملك الشاب صريعا وسط مياه النهر ،

وبدا حينها أنه كانت قد تلقى سابقا المعركة بعد ضربة سيف مجهولة لم تخطئه.

قال حينها الأمير أحمد للمبعوثين:

-" الملك يبقى ملكا، ولو وجدناه حيا ، لسلمناه لكم بدون فدية "

أما الفتاة الجميلة شمس فقد قامت بمهمتها في نقل المرأة الخمسينية إلى العريفة ، مخبرة إياها أنها تحتاج العناية بسبب ما لاقت من معاناة تئن من وطأتها الجبال ، دون أن تنسى أن تبلغ العريفة بأن السيدة هي " أم حمزة " ...قالت ذلك حتى تحظى الصافية بفائق العناية ، فالفتى صار معروفا عند القاصي والداني ، وقصة قيادته "لكتيبة النسف" هي الآن على كل لسان حضر المعركة ...معركة الجسر بامتياز.

وما إن اطمأنت على خالتها " الصافية" حتى عادت إلى حيث يكون حمزة ، فمازال للفتاة عمل حاسم ستقوم به ، وفي عنقها أرواح بريئة ستكشف عنها حتى لا يطالها الأسر والهوان ، فهي تعلم أن الكثير من الأسرى الذين كانوا معها في أصيلا ، قد أجبروا على مرافقة الحملة البرتغالية ، إما لجر المدافع ، أو لرفع الماء والمؤن التي سيحتاجها المعسكر ، وهي مؤن كانت بالضخامة التي فاقت حاجيات الجيش المغربي والأسرى من الأوربيين الذين تجاوز عددهم **16.000** أسير .

وبعد جهد جهيد، وحظ وقف لجانبها أخيرا عثرت الفتاة الإشبيلية على حمزة ،هناك حيث مكان الجسر المنهار ، راميا بجسمه في النهر مع رفاقه.. يخرجون الغرقى الذين كانوا يلوحون بأيديهم يائسين .

أشار إليها الفتى بيديه أن تنتظره على ضفة النهر ، ريثما يكمل مهمته التي ستستغرق ولا شك وقتا طويلا ، خاصة أن الحملة المغربية لا تتوفر على رجال يجيدون السباحة إلا القليل ، وأكثر الذي يتقنون الغطس هم أهل القرى المجاورة للنهر.

وبعد ساعات من الانتظار ، وخلالها تم إنقاذ ما يقارب الخمسمائة غريق أوربي مازالوا أحياء ، أو تلقوا طعنات وجروح مميتة شلت حركتهم عن مصارعة المياه العاتية، كانوا يمدون أيديهم لأعدائهم

السابقين الذين جاءوا لينتشلونهم تمهيدا لوضع القيود في أعناقهم وأيديهم ...فهذه سنن المعارك ، يفرض فيها المنتصر على المهزوم ما يشاء من قوانين .

لوح حمزة لشمس-الضحى أن تدنو منه حتى يساعدها في أمرها المستعجل ، كانت تبحث وتبحث ، تلتفت يمينا وشمالا في الصفوف الممتدة على ضفتي النهر الجنوبية المقابلة لهؤلاء المقيدين من أسرى المعركة ، كانت وجوههم شاحبة ، وعيونهم جاحظة من هول ما لاقوه في زمن المعركة الرهيب .

كان البعض منهم يتلفظ بكلمات غير مفهومة تماما ، فالحملة الأوربية قد احتوت أقواما شتى ، ولهجات المحاربين تكاد لا تحصى .

فجأة ودون مقدمات هرعت شمس-الضحى إلى أحد المقيدين وارتمت على يديه وكتفيه تقبلهما:

" حمدا لله ، أنك حي "

رد الرجل الشيخ وهو يغالب دموعه:

-" شمس ...ابنتي ، ورب موسى إنني أشعر أني حر رغم القيود التي في يدي"..

كانت لحظات عاطفية أخرى تعيشها شمس ويعاينها حمزة ،وهو يحملق في الرجل وقد خمن من خلال كلامه أنه الرجل العبراني جار الفتاة الإشبيلية .

خاطبت شمس رفيقها :

-" هذا عمي شمويل الذي حدثتك عنه، كان ووالدي رفيقان ،جارين متجاورين "

فهم الفتى المغزى من كلام شمس-الضحى ، فأعطى أوامره لأحد رفاقه بأن يفكوا قيد العم شمويل ، وكل من تشير لهم الفتاة الأندلسية بأصابع النجاة من الطوق.

- أية مكانة أصبحت عليها يا حمزة ؟؟

- صرت تتحكم في رقاب العباد كيف ما تريد..

- حق لك ذلك، لأشد ما قدم الفتى من تضحيات ، وفي هذه المعركة بالذات .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كانت معركته هو ، وحريتها هي ، ولقاء بالأحبة ، بعد طول غياب ..كلها خواطر جالت في نفس الفتى وهو ينتظر ما ستسفر عنه أبحاث رفيقته المورسكية .

للأسف لم تتمكن شمس من العثور إلا على الشيخ العبراني ، واثنتان من صويحباتها حالفهما الحظ ...أما الشيخ العبراني فقد فك قيده ،ولسوف ترافقه الفتاة إلى حيث يجب أن يكون معززا مكرما .

وهما يحثان الخطى نحو خيام الراحة التي أعدت على وجه السرعة حتى تخفف العناء عن مجروحي ومعطوبي المعركة الضارية، فضل العم شمويل العبراني أن يجلس على صخرة هناك قرب النهر حتى يخبر الفتاة بما تحمله جعبته من أسرار.

وهكذا جلس الفتى حمزة وشمس-الضحى يستمعان ، وقد قدمت الفتاة للشيخ العبراني تعريفا مقتضبا لحمزة ،الأمر الذي جعل العم شمويل يتمعن بتركيز في قسمات الفتى الماثل أمامه.

بعدها تكلم الشيخ الإشبيلي:

-" اسمعي يا ابنتي ، لقد سجنت أنا ووالدك أربع سنوات في قلعة أصيلا ، وفي أحد الأيام جاءنا الحراس ، وقالوا بأن السجين ابن شرف سيكون ضمن السفن المتجهة إلى العالم الجديد ، وذلك لخبرته في معرفة المعادن بعد أن علموا مسبقا تجارته في العطارة ، أما أنا فاحتفظوا بي في القلعة حتى أعينهم في ترجمة العهد القديم إلى اللاتينية ، ومعه الإنجيل ، وذلك حتى يتسنى لهم إرسال آلاف النسخ منها تمهيدا لتنصير أهالي المستعمرات بالعالم الجديد ، أو كالكوت ، وأيضا زنوج إفريقيا ".

وهكذا نجاني الرب من خوض أمواج بحر الظلمات ،وخلصني من التعامل الرهيب للبحارة مع السجناء ، وذاك الذي قدر لوالدك(يقول كلامه وهو يربت على كتف الفتاة التي أطلت دموعها بمجرد ذكر اسم أبيها ، غير أنها تجلدت حتى لا تصدم بنهاية سيئة العواقب قد يسردها الشيخ العبراني)..

يكمل العم شمويل :

-"وقد جعلت مهنتي الجديدة من سجني أقل حدة ، بعد أن فكت القيود من يدي، وألزمت فقط:

- بعدم مغادرة مكتبة القلعة إلا بمرافقة حارسين من حراسهم .

يكمل العم شمويل :

-" وهكذا انهمكت في التدوين والكتابة ، والحق أن هذا أفضل ما كنت أتمنى ..بعدما رمت بنا الأيام خارج فردوسنا المفقود ... لكنني لم أنسى يوما التقصي عن أخبار والدك ، وكلما سنحت لي الفرصة أتحسس أخباره ،ومما وصلني فيها العجب العجاب ...

- فوالدك ابن شرف وحسب ما وصلني يا ابنتي من أخبار متقطعة قد استقر في بلدة بالعالم الجديد تسمى:

- خليج غوانابارا.

سرد العم شمويل قصة مدينة ريو ديجانيرو التي وصلها أوائل المغامرين البرتغاليين ، مستعينين بالمورسكيين لخبرتهم في الملاحة و معرفة أدوات البحر من أسطرلاب وخرائط وبوصلات تحدد الاتجاهات ، كان ذلك في شهر يناير " كانون الثاني من العام الميلاديّ **1503**...وهكذا سمى هؤلاء البحارة القساة هذا الخليج باسم الشهر الذي وطئت أقدامهم فيه هذا النهر العظيم.

ويكمل العم شمويل قصته عن ابن شرف في تلك البلاد الغريبة ، بعدما استعان به البرتغاليون في فرز المعادن الثمينة من شوائبها حينما عثر هؤلاء المغامرون على مناجم هائلة للذهب والفضة لا تبعد إلا قليلا عن النهر.

حكت الروايات القادمة من هناك أن ابن شرف ولخبرته السابقة في العطارة ،أهله ذلك لكي يجني بعض الأموال ويحصل على قدر من الحرية ، لكنه ظل دائما تحت المراقبة ، ولا يسمح له بمغادرة الخليج .

كما أن البرتغاليون وحسب تلك المعلومات القليلة الواردة من ما وراء البحار ، قد استفادوا أيضا من مستوى ابن شرف التعليمي ،لكون هؤلاء البحارة كان معظمهم أميون لا يحسنون إلا ركوب البحر.

ثم اختفت أخبار ابن شرف ، عن العم شمويل العبراني ، ولم يعد يدري بعدها :

- هل تمكن ابن شرف من أن يحصل على حريته هناك؟
- أم إن هذا الأندلسي المرحل قد تزوج وأنجب أبناء آخرين ؟؟

قد يحدث هذا ...في ظل وصول عدد كبير من المورسكيات اللائي اتخذن كجاريات للبرتغاليين والإسبان في مستعمراتهم الشاسعة التي قسموها فيما بينهم في القارة الجديدة بناء على مباركة البابا لمعاهدة :

-"تورودسيلاس الشهيرة"

على أن أشد الأخبار شؤما هي أن يكون ابن شرف قد قضى محروقا في محاكمة " باهيا سالفادور الشهيرة " التي أقيمت للمورسكيين بالبرازيل ، كان ذلك في العام المسيحي **1594**... بعدما اتهمتهم محكمة التفتيش بتهم يخجل حتى القاضي بالنطق بها ، من قبيل :

-تهمة الغسل والنظافة.
- تهمة القيام الباكر.
- تهمة الصيام في رمضان.
- تهمة نظافة الملابس .
- تهمة ارتداء الأبيض يوم الجمعة...

كان الهدف من هاته التهم الجاهزة هي منع تدفق المورسكيين إلى العالم الجديد ، وتخوف الأيبيريين من انتشار الإسلام بهاته القارة البعيدة ، رغم أن هؤلاء المعمرون كانوا في حاجة ماسة إلى خبرتهم في الزراعة والملاحة.غير أن محاكم التفتيش التي تترصدهم جعلت جل الحواضر التي أسسها الإسبان والبرتغاليين في اسبانيا الجديدة ، وولاية لابالاطا ، وغرناطة الجديدة ، ومدينة القديس بولس ،جعلتها تحت الأعين.

كلها حواضر تخلوا تماما من دور للعبادة لهؤلاء اللذين حافظوا على دينهم سرا وأظهروا المسيحية جهرا، منذ وصول القبطان الجنوي كريستوف كولومبوس على متن سفينته " سانتا ماريا"في تشرين الأول أكتوبر من العام **1492** للميلاد.إلى جزيرة "غواناهاني" بالباهاماس.

وقد أفلح هؤلاء الغزاة في مسعاهم، ففي مدينة باهيا الكبرى لم يتبقى للمورسكيين الكثر سوى آثار تسمى :

-" حديقة جنة الله".

كان ذلك بعد القضاء على " ثورة العبيد" بها . والتي يرجح أن ابن شرف قضى نحبه فيها ..

حتى أن الشاعر الكبير عبد الغني محمود حينما زار مدينة السعادة " المدينة الساحلية الاستوائية" قال شعرا حزينا مازال صداه يتردد على تلك الهضبة التي وقف عليها صارخا إلى أعلى :

هناك على الربوة العاليـــة * فقدت المواسي والآسيـــة
فيا رب عفوا، فلا مسجـــــد* أناجيك فيه ولا زاويـــة .

ختم العم شمويل كلامه ، مربتا على كتف شمس- الضحى :

-" إن والدك كان يبعث لي بأخباره إذا ما سنحت له الفرصة لذلك ، وكان في كل مرة يسأل عنك ، وكنت أجيبه أني لم أعلم عنها شيئا ولعلها تكون بخير ، حتى انقطعت الأخبار عني يا ابنتي ..وها نحن قد كتب لنا اللقاء في هذا "اليوم الموعود "، فالشكر للرب على أني التقيتك ولو في هاته الظروف المثخنة بالجراح "

ولما أتم كلامه ، انتصب الشابان واقفان ، كل منها يقبل كتف العم شمويل العبراني ، حيث دعاه حمزة إلى الاستقرار معهم في " قرية الجبل " بعد مراسيم الاحتفال.

غير أن شمويل العبراني شكر للفتى كرمه ، وخاطبهما :

-" يا أبنائي ، أتمنى من رب موسى أن تهنآ حياتكما ، لكنني بعدما أحضر الاحتفال ، والذي هو نصر لنا كلنا ، بعدما هزم جيشكم هؤلاء الغاصبين ، عليهم اللعنة من الرب ، فإني عازم على التوجه شمالا إلى تيطاوين...

-أجابت الفتاة مستغربة :

- ولم تيطاوين يا عم !!

- لقد استقر الكثير من أهلنا يا شمس في هاته المدينة ، بعدما نزل فيها أمراء آل المنظري منذ زمن ، وقد سمعت أخبارا عن وجود زوجاتي الثلاث فيها .

(بدا على حمزة ابتسامة لم يدري كيف يكتمها ، فتظاهر بأنه يكح كيلا ينتبه له الشيخ الجدي ، ثم تابع إصغاءه لشمويل العبراني).

هذا الذي سيغادر بعد يومين من المعركة ، وبعد أن حضر مراسيم بيعة " الأمير أحمد" سلطانا على بلاد الأشراف ، وكان ضمن اليهود الذين قدموا الشكر للشريف السعدي وجيشه على تخليصم من مصير بئيس...

كيف لا ! و" الملك دون فيرناندو بيسوا " كان مما قاله بالحرف الواحد عند نزوله البر المغربي، أنه:

-"إذا انتصر واستولى على المغرب ،سيذبح بالسكين كل يهودي لا يقبل التنصير "

وهكذا نجا العم شمويل العبراني من الذبح في أصيلا فقط لحاجتهم إلى مترجمين مثله ، لكونه كان يتقن لغة العهد القديم..أما وإنه كتب له النجاة ، فقد آثر التوجه إلى تطوان مبشرا بنصر السعديين الذي هو نصرهم .

سيعيش العم شمويل العبراني ما تبقى من حياته معززا بين أهله هناك في مدينة العيون الباردة ، والتي تحولت إلى ما يشبه قلعة للمورسكيين المطرودين من أرضهم ، وسيؤسس هذا الشيخ التلمودي لعيد " بوريم سيباستيانو" الذي يتحول إلى طقس احتفالي مبهرج بمعجزة إلهية أنقذتهم من الذبح ، يخرج كل اليهود الأندلسيين والمغاربة فيه إلى ساحة تيطاوين يرمون النقود ، ويتصدقون على الفقراء ،ويتوقف في ذلك اليوم العمل ،ويدعون في قداسهم للمك السعدي ومن بعده لملوك المغرب.

كل ذالك الاحتفال الذي حضر له الشيخ شمويل العبراني ، اتخذ من بداية شهر أيلول عنوانا عريضا لتذكر نجاتهم بعد معركة النصر الكبرى :

* وادي المخازن.

ولسوف ينقل حفدة شمويل العبراني احتفالاتهم حتى إلى العالم الجديد، حيث تقام سنويا في كركاس طقوس مماثلة لما يحدث في المدينة الجبلية تطاويين.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كان حمزة يود لو بقي العم شمويل وكذلك شمس ، فهي على الأقل تشتم فيه رائحة بلدتها ، وصحبة والدها ، لكنهما احترما قراره ، لذا عادا معا إلى حيث أنزلت أمه الصافية.

ولأشد ما كن يتشوق حمزة لسماع خبرها ، رغم تعبه الواضح ، وجرحه الذي يتحامل به على نفسه ، حتى لا يرى ضعيفا خائر القوى،غير أن شمس -الضحى سردت له "القصة العجيبة في تعرفها على أمه الصافية " هناك حينما كانتا ترافقان الحملة البرتغالية المغادرة لأصيلة ، وهما مجبورتان على حمل أمتعة النسوة النبيلات لأعرق أسر البرتغال.

- هناك (تقول شمس) تعرفت على والدتك ، رغم صعوبة استيعاب كل ما تقول لاختلاف لهجتينا – تضحك الفتاة بعدما تذكرت تفاصيل الحوار- غير أني جاهدت نفسي في فهمها ، كانت تبكي في صمت دون أن تبدي ذلك لأعدائها.

- إنها عزيزة النفس مثلك تماما يا حمزة.

يجيبها الفتى مفتخرا:

- هكذا نحن ساكني قرية الجبل ، كبريائنا مثل قمة من قمم جبالنا ، لا ترضى أن تنحني خنوعا.. لم يكن الفتى يبالغ ...كان صادقا في كل ما يقول .

أتمت الفتاة الجميلة شمس كلامها :

"وكنا نتبادل أطراف الحديث فيما بيننا، نقوم بذلك في أوقات توقف الجيش الذي ألزمنا الخروج معه ، تقاطعت قصة حياتينا عند سرد حكايتك يا حمزة."

تختم الفتاة كلامها بعد أن اقتربا من خباء العريفة ، بأنها كانت تتمنى لقياه في هاته المعركة ، وبل وكانت تطمئن أمه بأنها على يقين أن ابنها سيكون من ضمن أبطال المعركة ...كل ذلك استمدته شمس من وعد حمزة الذي قطعه لها ، بعد أن فكت قيوده من سجن أصيلا ، ليعود مع جند السلطان ، عاقدا القرار ، كمقاتل لا يشق له غبار..

أخبرته الفتاة بأن والدته ستكمل له باقي الرواية .... قصة عثور الحملة على الصافية قبل يوم من المعركة.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

دخل الشابان حمزة وشمس إلى خباء العريفة،التي استقبلتهما بالزغاريد كأنهما عروسينا زفا لتوهما ...كانا يبدوان كذلك حقا،ولما قبلا رأس السيدة الوقورة ، جلسا بقرب الصافية ، يعانقانها ويحمدان الله على سلامتها ، وإن بدا على أم الفتى التعب الشديد ، لذا لم يطيلا الجلوس وإرهاقها بالتساؤلات ، بل سرعان ما ترك حمزة الجميلة شمس-الضحى لتلازم والدته المريضة، وخرج هو بعد أن نودي :

-الصلاة جامعة .

وقد طلب ذلك إمام الحملة العسكرية بأمر من " الأمير أحمد" وهي صلاة للشكر أولا على نعمة النصر، التي حققها الأشراف ومن والاهم من متطوعين وأندلسيين وأتراك ، ومتصوفة أمثال الشيخ أبي المحاسن ، والذي كان البادئ بالكلام ، أمام حضرة " الأمير الشريف":

-" نحمد الله تعالى على هذا النصر ، ونقدم تعازينا الحارة لوفاة أخيك " مولانا عبد المالك المعتصم بالله " ...كان والله مقداما شجاعا ..نحسبه عند البارئ شهيدا."

ثم تقدم الفقهاء المرافقين للجيش ، مقدمين العزاء ، وباسطين أيديهم لبيعة " الأمير أحمد" الذي سيسمى منذ لحظة البيعة :

*" السلطان أبو العباس أحمد المنصور "

وحق له ذلك ، فالنصر كان حليفه ، والقيادة العليا للفرسان – فخر المعركة – كانت من نصيبه ، وفوق كل ذلك كله ، كان :

-" الملك الوحيد الناجي من المعركة التي قضى فيها المعتصم و المتوكل المخلوع و دون سيباستين " .... سيحلو للكثيرين من الحكواتيين بمراكش وفاس وتطوان وبادس تسمية الملحمة :

-" بمعركة الملوك الثلاث" .

بعدها تقدم التركي رضوان قائد المدفعية ، مهنئا بدوره السلطان الجديد على نصره الباهر ، ومبديا ثناء كبيرا على فرقته الشجاعة ، ومقدما التهنئة بالنيابة عن الخان " مراد الثالث" صاحب الأستانة العظمى.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

أما قيادة الخيول ، فعهدت إلى الفتى الذي علا اسمه ، وتحدث الكثير عنه ، ابن قرية الجبل ، الفارس الشجاع " حمزة بن العربي ولد مي حليمة " ، فتقدم الفتى الجبلي قائلا:

-" مولاي السلطان ، باسم قرية الجبل،نبارك لكم النصر... هاته القرية التي كانت مسرحا لملحمتكم الكبرى ، وأرضها كانت مجالا لنصركم المظفر ، وإن أهلها يتشرفون بكونكم تجلسون على عرش دولتكم في قريتهم الأبية .. " وما النصر إلا من عند الله " صدق الله العظيم .

ثم تقدم نحو السلطان أحمد والذي كانت في نظراته كل علامات الرضا والافتخار بهذا الفتى المقدام ، فسلم عليه مبديا البيعة للملك الشريف ..

بعدها تتابعت الوفود ، كل حسب مرتبته ، بايعت القبائل ، وبايع أهل الزوايا ، كما بايع المتصوفة، ثم تبعهم المورسكيين ،ثم تقدم العم شمويل العبراني ، إلى حضرة " السلطان المظفر" ، قائلا :

-" إن رب موسى الكريم ، جاد علينا بهذا النصر العظيم ، واعلم يا مولاي أن الطائفة العبرانية تشكر الرب على نصرتك لنا ، بعد أن كان الطاغية النصراني يريد ذبحنا ، كما وعد ، فرد الرب الجليل كيده في نحره "..

بعدها أثنى أصحاب القلم ، وأهل الشعر مخلدين هاته الملحمة بقصائد مطولة ، كان من بينها:

وحسبك من وادي المخازن وقعة هوى
بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس
بيمين أبي العباس صالت سيوفنا
على الشرك حتى ليس للشرك حـــارس

وفي قصيدة أخرى :

صببن على أرض العداة صواعقـــا
أسلن عليهن بحر خسف ورجفـــــان
كتائب لو يعلون رضوى لصـــــدعت
صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبـــان

وقد نال " السلطان أحمد " النصيب الأكبر من الثناء والمدح :

ويوم المخازن إذ طمى بـحار
المرد والخيل فيها جمـــــاح
فكان بها كالصقر ينقض ظافرا
تساعد منه مخلب وجنـــــاح.

الفصل الأخير: قدر عند نهاية النهر

أما حمزة فلم يترك العم شمويل العبراني يغادر حتى يحقق له طلبا أخيرا :

-" يطلب منه يد أميرة أحلامه الفتاة الاشبيلية لالة شمس- الضحى "

فالشيخ الموريسكي كان الوحيد الحاضر في الحدث العظيم ممن يمت بصلة القرابة لشمس، وهذا ما جعل حمزة يقوم بخطوته تلك .

- هل تسرع الفتى في قراره ؟؟

- أم كان يود أن يتوج نصره في الحرب ، بنصر آخر في الحب؟؟

- وهل ستوافق شمس-الضحى ؟؟؟

فالفتاة قد تود مرافقة العم شمويل إلى تطاوين لأن الكثير من أهلها استقروا هناك ، كما أن فقدانها لأسرتها قد يؤثر في موافقتها، من عدمه.

- لكن الفتى كان مصمما هذه المرة ألا تضيع منه تلك التي أغرم بها بعد لقاء أصيلا ، ولما كتبت الأقدار لهما اللقاء تحت جسر وادي الأبطال ، فإن عليه الآن أن يطلب يدها من قريبها العبراني .

قبل شمويل هذا الطلب ، فسر الفتى لذلك ، وأخبر شمس- الضحى بأن تهيئ خيمة العريفة ، التي استقرت فيها الصافية والدته المتعبة.

كان يعرف أن أمه تحتاج إلى الراحة ، لكن استعجال الشيخ العبراني في المغادرة لم يترك له خيار ، لذا لم يخبر لا أمه ولا شمس بما يريد..

ولما دخل الفتى والشيخ ، وسلموا على الحضور ، قال حمزة :

- هذا العم شمويل الأندلسي ، جار لشمس-الضحى وأحد أقربائها ، وقد نجاه الله كما نجانا من هؤلاء الغاصبين ... لذا قررت أن :

* أطلب يد شمس من العم المحترم .

قالها ونظر إلى حيث تجلس شمس التي احمرت وجنتيها خجلا ، ولم تستطع أن ترفع عينيها العسليتين من على الأرض.

لحظتها أطلقت العريفة زغرودة دوت في أرجاء الخباء الممتدة على مرمى النهر،. أما الصافية فاكتفت بابتسامة الرضا على فلذة

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كبدها الوحيد... تراه وقد شب واشتد عوده ، وهي تقول في قرارات نفسها :

- ليتك يا العربي ، كنت حاضرا لترى ما فعل ولدك ... لقد انتقم لنا من ذاك الشبح الذي سود علينا حياتنا .

- ليتك كنت هنا لترى هؤلاء النصارى وقد ملأت جثتهم النهر، الذي كانوا يتخذونه معبرا لسلبنا قوتنا وأرزاقنا .

- ليتك كنت شاهدا على ابنك وهم يكبل مع إخوته المجاهدين، أيدي وأرجل هؤلاء الغاصبين ،وقد ألقوا السلاح مستسلمين يعلوهم الإذلال .

كانت الصافية تتمنى حقا لو يحضر العربي زوجها ، الذي اختطفه نصارى المدينة برفقة حماره الأشهب ، وهو يهم بشق ترعة ماء من النهر حتى يرتوي حقل الذرة الذي كان يملكه ، والذي تحول إلى أرض بوار لا حياة فيها ...ودت لو يشاركها العربي ولد مي حليمة خطوبة ابنها إلى من عشقها قلبه ، الفتاة المورسكية الأصيلة.

على أنها أخفت ما تشعر به حتى تترك يوم الأفراح يمر بسلام ، هي هكذا الأم تضحي بسعادتها، بل وكل ما تملك من أجل أن ترى من أنجبتهم على أحسن حال.

أما شمس –الضحى ففاجأتها تلك السرعة التي صارت فيها الأحداث ، لكنها لا تملك من الأمر شيئا ، فقلبها شغوف بذاك الجالس أمامها، قريبا من شمويل العبراني .

سيصل خبر زفاف الفتى حمزة إلى مسامع السلطان أحمد المنصور الذي أهدى للعروسين أفخر الهدايا ، وهي غنائم حازها السلطان من أعدائه في المعركة ، قد كانت تلك الغنائم مصدر رزق لزواج الكثير من الشباب المشاركين في تلك الملحمة ، بعد أن نادى منادي الملك السعدي قائلا :

-" يخبركم مولانا السلطان أن مهر كل العرسان في هذا الأسبوع الذي سنقيم فيه هنا ، في قرية الجبل هي على نفقته أيده الله ".

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

رافق حمزة العم شمويل العبراني إلى خباء الرجال ، لكي ينام ويرتاح ..فما أحوجه إلى الراحة..ولما عاد الفتى كان الليل قد خيم ، والقمر قد أطل على المعسكر بضوئه الخافت ودفئه المعتاد .

كان ضوء القمر قد انعكس على مياه النهر ، الأمر الذي جذب حمزة إلى ضفة الوادي ، يجلس الفتى فوق صخرة هناك يستمع إلى خرير المياه الأزلية...حينها تذكر العبارة التي لم تفارق خياله ، هي أشبه بنبوءة صدح بها " سيدي الشريف " ذات يوم لجدته مي حليمة حينما زارته الجدة برفقة الصبي ، الذي رافقها أول مرة ..

إنه حوار لا يزال محفورا في ذاكرة الفتى ، ألم يقدم شيخ الجبل ، ذاك الزاهد في الماديات – المنجذب للروحانيات للصبي حمزة لوحة ليتعلم عليها آيات الذكر الحكيم؟

حينها وللمرة الأولى يسمع الصبي شيخ الجبل يقول لجدته مي حليمة :

*" إن في نهاية هذا النهر ، قدر حمزة " .

أجل .. هي تلك العبارة ، قالها بالحرف، ما زلت أحفظها ، بل وما زلت أتذكر قسمات وجهه الوقور و لحيته البيضاء الطويلة ، وحتى رداءه الأخضر يحضرني الآن.

(يتساءل الفتى في قرارات نفسه ، وهو يحمقل بكلتا عينيه نحو آخر نقطة من المياه يعكسها ضوء القمر الخافت)... كان يقارن بين مقولة " سيدي شريف" في ذاك الوقت الذي كان فيه "المفترس " جاثما على القرية المحاصرة ، وبين هذا الليل الذي كشف عن هزيمة مروعة لذاك الشبح الذي تبخر مع مجرى النهر..

كان حمزة في حوار مع الذكريات ، يصارعها فتصرعه بسيف الزمن ، يقارن بين الأمس واليوم ، بين وضعه أسيرا ، ثم طريدا ، وبين وضعه الآن :

- أحد صانعي ملحمة وادي المخازن .

يساءل حمزة نفسه :

-" هل كان سيدي الشريف يقصد بالنبوءة مشاركتي في" نسف الجسر " ؟؟

- وإن كان، فمن الذي أخبر شيخ الجبل أن هذه المعركة المصيرية سيكون النهر حاسما فيها ؟
- أو ربما أن الشيخ كان يقصد بالقدر : لقائي بأمي الصافية ، وشمس-الضحى !!!

كان يخمن ويخمن ، وما إن يحاول الجواب عن سؤال حتى يهمه أمر الأخر ... عليه أن يفكك الكلمات السبعة للمقولة، يطابق معانيها على قسمات المعركة ، ويخيط مفرداتها فوق صخرة النهر التي يجلس عليها... حقا إن هذا الرقم بالضبط للغز محير، أنظر حولك لتعرف قوة سحر هذا العدد الشهير ، تجده ذا دلالة معبرة جدا عند أكثر الشعوب تعلقا بالغيبيات..

ربما يقصد " سيدي الشريف "بكلامه نهاية ما ، لم أصلها بعد ؟

الآن بات علي أن أعود لأخبر أمي وشمس –الضحى أن علي أن أستريح في خيمة أهل القرية ، فمازال ينتظرنا الكثير في يوم غد.

نام حمزة كما لم ينم من قبل ، بات في خير ليلة مذ ولدته أمه الصافية ، سينام ولن يحلم كما كان في الليالي السابقة ، فما سيحلم به الآن قد حققه ، أو حقق معظمه :

-النصر على المفترس قد حسم.
-وعودة أمه أزالت عنه الهم.
-ولقاء شمس كان هو الحلم.

وبعد أسبوع مشهود ، أقيمت فيه الاحتفالات، وألقيت بمناسبة النصر قصائد طوال ، وأعلن الأمير أحمد سلطانا متوجا فوق جواده الذي خاض به غبار المعركة ، وأرسل السلطان الجديد بشرى النصر إلى حكام المسلمين في أصقاع الأرض ، وكانت أهم الرسائل تلك التي حملها سفيره إلى السلطان الأكبر:

" مراد خان الثالث بن سليمان القانوني " سلطان القسطنطينية العظمى ،حاكمة نصف الدنيا ، برا وبحرا.

وقد حكى سفير فرنسا لدى الباب العالي " دي جوي " وصول الخبر إلى الأستانة ، يقول هذا السفير :

"فإن القسطنطينية فرحت كثيرا بخبر هزيمة ملك البرتغال بإفريقيا ... على الرغم من أنه لم يعرف مصير هذا الملك ، فبعضهم يقول أنه مات، وبعضهم يقول أنه فر هاربا إلى إسبانيا"

يكمل مبعوث الملك هنري الثالث :

"إن هذا النصر الساحق أكد قوة فاس وسيمنح هذا البلد صورة جديدة ، من شأنها أن تأخذ بلب البلاطات الأوربية "

كما سلم المنصور السعدي " جثمان خصمه دون سيباستيان " إلى الوفد الإسباني –البرتغالي بعدما رفض افتدائه ، وهكذا، فالروايات القادمة ليلة المعركة تحكي أن جثة الملك التعس قد وضعت في صندوق بأمر من السلطان الحسني، وغطيت بالجير حتى لا يطالها التعفن ،وسلمت إلى وفد خاله الإمبراطور فليب الثاني ، الذين جاؤوا خصيصا لهذا الغرض ، وبذلك سلمت رسميا الرفات التي كانت في حالة لا يمكن التعرف عليها إلى حاكم سبتة بحضور شهود كثر ، وفي جو يطغى عليه الأسى ، وذلك يومه الأحد **11**دجنبر/ كانون الأول في نفس عام الملحمة ،

وقد ظل الصندوق هناك في سبتة حتى نهاية العام حينما تسلم فليب الثاني عرش البرتغال رسميا ، موحدا بذالك شبه الجزيرة الأيبيرية كلها تحت سلطانه ،وهنا سيشرف على دفن ابن أخته العاق في صومعة " بيليم" بلشبونة إلى جانب رفات أعظم البحارة البرتغاليين " الأميرال فاسكو دي غاما "والكونت دي كاموس"...وذلك في مشهد جنازة فخمة تغيى من خلالها وارث عرش البرتغال الخال فيليب فرض موت سيباستيان على ساكنة المملكة غير المصدقين بالكارثة، والتي أحاطت موت ملكها بهالة من القدسية بين منكر ومتوقع لعودته وبين مصاب بما بات يعرف ب:

-"السيبانيستيانيزم".

كان فليب الثاني يدرك حجم الضعف الذي قابلت به لشبونة ونبلاءها نبأ الهزيمة الساحقة ، وهذا ما وصل إليه من وصف " القس كونسطاجيو" :

-"لم يكن من بين سكان لشبونة من ليست له حاجة في نفسه من وراء هاته الحرب ،فمن لم يكن له فيها ولد ،فله أب ،ومن لم يكن له فيها زوج ، فلها أخ مشارك ،كما أن أغلب التجار الذين لم يكن لهم أقارب في هذه الحرب ،كان لهم غرماء من جنود ونبلاء،توجهوا إلى الحرب طمعا في كسب الربح والتمكن من تسديد الديون".

* ماذا جنيت على شعبك بخطتك الخرقاء يا دون سيباستيان؟ (تصرخ سيدة من أشراف الأسرة الحاكمة حينما نعي إليها زوجها قتيلا في تلك المأساة التي ستفقد المملكة البحرية استقلالها لعهد طويل)..

كما سيصف أحد الجنود المرافقين للكاردينال هنري والذي سيتقلد الحكم مؤقتا بعد هلاك الملك الشاب ،قال هذا الجندي :

" ليلة وصول الخبر التعيس يومه الأحد **24** من أب/ أغسطس ، كم سيطر الحزن على كل شيء ، وكم ملأ الأنين الأجواء ،كان كل واحد مثقلا بالأسى ،إنه الشيء الذي يبعث على الشفقة أن تسمع بكاء النساء النبيلات ينطلق من منازلهن ،أو تسمع الأخريات في الشوارع ينتحبن ويطلقن الصرخات التي تصل إلى عنان السماء وقد تأكدت صحة الخبر مرارا..تذمر عدد كبير من الرجال ، ولعن آخرون الملك ، ولعنوا من أذنوا له بالذهاب إلى إفريقيا .."

في هذا الجو الذي عمل به فليب الثاني بالمثل القائل : مصائب قوم عند قوم فوائد، نصب نفسه مدافعا عن مصالح البرتغال بالمغرب ،حيث اتفق مع النبلاء والرهبان بأن يبعثوا بأموال طائلة إلى " المنصور السعدي " من أجل افتداء النبلاء الأسرى هناك في المملكة المراكشية المزهوة بنصرها .

غير أن " السلطان الحسني" طالب بأموال ضخمة لافتدائهم، معتبرا إياهم سبب إغراء الملك الطموح بغزو المغرب ، في حين أغدق على المطالبين بجثمان سيباستيان هدايا ثمينة ، حتى يخبروا فليب الثاني ، من أي طينة هو:

- سلطان المغرب الجديد.

كما أمر " الملك أحمد المنصور " بدفن المجاهدين الألف وخمسمائة ، باستثناء جثمان أخيه " أبو مروان عبد الملك المعتصم

بالله " والذي سينقل مع المعسكر إلى العاصمة مراكش، ليدفن إلى جانب جدهم "عبد الرحمن القائم بأمر الله "، وزعيم دعوة الأشراف الروحي " أبو سليمان الجزولي " هناك في المقبرة التي سيشيدها المنصور .

كما أن هذه المقبرة التي أقيمت على عجل بجانب ساحة المعركة، لن تقبل جثة من اعتبر رمزا للخيانة ، وجالب العار والمهانة ، ومانح الثغور للنصارى " المتوكل المخلوع " بعد أن أمر به :

-" أن اسلخوا جلده، واحشوه تبنا، وطوفوا بجثته في المداشر والمدن ، حتى يكون عبرة لمن يعتبر.."

أشرف حمزة حينها على دفن رفيقه في الملحمة ، عباس الراعي مفتول العضلات قريبا من الجسر الذي ساهم بسواعده في نسفه ، وقد رثاه الفتى بأحر الكلمات ، وكذالك فعلت الصافية التي دعت له بخير ، أما شمس-الضحى فرددت :

-" كل الشكر لكم أيها الأبطال ، لولاكم لكانت الأغلال لا تزال تطوقنا ، نحسبكم عند الله شهداء"

بعدها دفن الموتى من كلا الجانبين ، المغاربة والنصارى الذين جمع الكثير منهم في قبر واحد لكثرتهم ، سويت قبورهم على سطح الأرض ، ولم توضع لقبورهم شواهد ، وذلك حتى لا يتم نبشهم من المتعصبين ، أومن طرف أقرباء الأهالي الذين قضوا في المعركة من المجاورين للنهر وقاطني التلال القريبة.

وبعد الدفن ألحت الصافية بالعودة إلى الديار ، فأجابها حمزة لطلبها ، غير أنه كان عليه أن يستشير قيادته ، فلم يعد الفتى محسوبا على المتطوعين الذين عاد معظمهم إلى ديارهم ، محملين بحصصهم من الغنائم التي منحها لهم " أحمد المنصور " شاكرا لهم مساهمتهم بالرجال والمؤن في تحقيق النصر ، بل إن الفتى صارت له مكانة في جيش الأشراف لا غنى عنها .

طلب حمزة من أمه وخطيبته شمس أن ينتظراه حتى يعود ، وهي فرصة استغلتها الصافية للتعرف أكثر على عروسة ابنها ، وتسألها عن رأيها في الاستقرار معهم في " قرية الجبل " ، والأكثر من

ذالك تتقصى عن قصة الحب التي جمعتها بابنها من بدايتها حتى يوم الدفن .

أما حمزة ، فقد صدق ما توقعه ، إذ أن الأمر لم يعد عنده مجرد مشاركة في معركة حسمت نتائجها ، بل إنه الآن حسب قيادة الأشراف :

- أحد القادة الميدانيين الذين سيتم الاعتماد عليهم في تحرير الثغور التي لا تزال تحت الاحتلال البرتغالي ، وهي كثيرة ، يتطلب في سبيل استرجاعها حملات إثر الحملات ...

غير أن الجهد كان قد نال من الفتى ، فسمح له بأخذ قسط من الراحة هناك في مسقط رأسه " قرية الجبل " ، لا تتجاوز أسبوعين ، بعدها سيتعين عليه النزول إلى فاس عند " والي المدينة " للانضمام إلى المفرزة التي سيتحتم عليها المساعدة في استرجاع الثغور الساحلية من البرتغاليين أو الإسبان على حد سواء...كانت الثغور المراد تحريرها هي أصيلا ، طنجة ، والعرائش " مصب نهر اللوكوس.

حانت ساعة الرحيل ، والعودة إلى العاصمة مراكش بالنسبة " للسلطان أحمد المنصور " فالظرفية تتطلب أولا تثبيت حكمه الحديث العهد ، وتنظيم شؤون الدولة ، ثم التفرغ إلى تطهير البلاد .

وهكذا غادر الجيش السعدي مسرح مجده الأول قاصدا فاس أولا ، حيث وصلها في الخامس عشر من أب/أغسطس، و استقبلته المدينة بزينتها وبهرجتها ، وقدم له أعيانها الولاء ،وقد أطلقت المدافع طلقات النصر المدوية من كل قلاع المدينة الإدريسية ، وخرج أهالي العدوتين مهللين وشاكرين ، وداعين للسلطان بالصحة والتمكين ، بعد ذالك النصر المبين.

ولما أراح الجيش واستراح ، ترك المنصور قسما منه في فاس ، لتثبيت الأمن بالجزء الشمالي من البلاد ، وعاد بمعظمه إلى المدينة الحمراء ، ذرة ملكه ورمز حكمه .

وتبالغ الروايات في ذلك الاستقبال الذي خصصته مراكش للجيش الظافر ، حيث سيحول الحكواتيين هناك " قصر البديع الفخم " إلى ليالي ألف ليلة وليلة بنكهة سعدية خالصة.

أما حمزة وأسرته فكانوا آخر المغادرين ، وأول الواصلين، فالقرية تجاور مسرح الملحمة ، وأهاليها نزل معظمهم إلى الساحة بعد انجلاء الغبار عليها ، كان الكثير منهم يغوص في النهر بحثا عن قلادة أو نقود ذهبية سقطت من هؤلاء المترفين الذين جاؤوا لاحتلالهم، فإذا الأمر ينقلب إلى نحورهم .

تحولت قرية الجبل إلى ساحة واسعة لصائدي الكنوز ، مجوهرات ونقود وبقايا صلبان مذهبة ، وبقايا المدافع والبنادق المفرغة من شحنتها أو التي انشطرت أجزاءها ، أكوام من الأطعمة والأشربة ، والزجاجات المكسورة التي كانت معدة للخمور ، وقرب الماء ... كلها مخلفات تدل على حجم التموين الذي رافق حملة دون سيباستيان إلى إفريقيا المجهولة .

لعل هذا الدون كان يقول في قرارات نفسه :

- سأكون ثاني ملك رومي يعبر أراضي إفريقيا،بعد قرون خلت حينما عبر قيصر إلى مصر عهد الملكة الفاتنة كليوباترا ...

والحقيقة أن الفتى وهو يغادر مع أمه وجارتهم الغالية ، ترافقهم لأول مرة خطيبته شمس-الضحى لم يكن راضيا على قرار السلطان وقادة جيشه في الأوبة السريعة إلى فاس ،هذا ما عبر عنه حمزة لأمه حين قال :

-"ألا ترين يا أماه أن السلطان تسرع في الرجوع إلى فاس ؟

- كيف ذلك يا بني !

- كان من الأجدر أن نستغل معنويات جيشنا العالية بعد النصر المبهر ، ونقصد ثغر أصيلا بعدما فرغت تماما من المدافعين عليها .

ثم أكمل الفتى بنبرة أكثر قلقا :

- حقا إني أجزم يقينا أن هزيمتهم هذه ، وأسرنا للآلاف منهم ستجعل حصونهم ضعيفة بعد أن أخليت من المدافعين عنها ، فجلهم قدموا أفواجا في هاته الحملة .

ردت الوالدة الوقورة :

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

- أنت تعلم يا بني أن مولانا السلطان اعتلى الحكم قبل أسبوع فقط، وهذا يحتاج منه بعض الوقت لتوطيد حكمه أولا ... فالكثير من القبائل لم تبايع بعد.

أما شمس – الضحى فقالت :

- حينما كنت أخدم بعض نسوة العائلات النبيلة بأصيلة ، كثيرا ما سمعت أحاديثهم حول الملك البربري و نسوته ، وهي أقوال تفوق الخيال أحيانا ، وكانت بعض الكلمات تردد دوما ، منها مثلا :

" أن موت الملك في هذا البلد يؤدي إلى الفوضى والسلب والنهب ، وغالبا ما تهاجمنا القبائل المجاورة لمدننا البرتغالية إثر حروب العرش الكثيرة"

وكنت أستغرب حينها أشد الاستغراب...(تكمل شمس وهي تنظر في عيني حمزة)... هذا الذي أجابها على سؤالها :

- إن ذلك يعود يا شمس لمشكل ولاية العهد ، فغالبا ما يموت سلاطيننا دون أن ينصبوا أحد أبنائهم الكثيرين ، أو حتى بعد تنصيب أحدهم تندلع صراعات بسبب مناصرة القبائل للسلطان الجديد ،والذي تكون أمه غالبا من تلك القبيلة ... وهذه هي الطامة الكبرى .

حينها تدخلت الصافية :

* الحمد لله على أن الأمير أحمد ليس له من ينافسه بعد غرق المتوكل ابن أخيه ... وسيعينك هذا في تحقيق طموحاتك التي لم تتوقف عند نصرنا المبين " (كانت الصافية بهذه التلميحات تريد أن تصد الفتى ولو مؤقتا عن ركوب المخاطر ، والجلوس معها في قرية الجبل ، بعد أن أمنت أخيرا من هجمات شبح النهر).

أدرك حمزة المقصود من كلام أمه ، فطمئنها مبتسما وهو يخبرهما أنه اشتاق إلى أيام الطفولة هناك في حقل والده العربي ولد مي حليمة.

وما هي سوى لحظات حتى كانت الأسرة تجتمع في بيت الجارة الغالية، التي استقبلت العروس شمس- الضحى بالزغاريد ، كان ذلك تصرف حذق منها ، فهي تعرف أن بيت الصافية قد طاله النسيان ، والأكيد أنه في وضع سيء ، نتيجة فراق أهله له لزمن ليس بالقصير.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وبعد أن انسحبت الصافية وابنها حمزة إلى البيت ، وأعادا له الهيبة المفقودة ، يكنسان البهو ، وينفضان الغبار عن الأفرشة التي قد يستعملانها مؤقتا ، أما تلك التي كانت تحتاج الغسيل بمياه النهر فوضعها حمزة في ركن بيت منزو بأمر من أمه ، بينما اعتنت الأم ببيت العروسين بأثاث جديد استعارته من الغالية بسرية تامة.

وبعد تناول العشاء شكرت الصافية لجارتها كل صنيعها وودعتها مؤقتا ،ثم انطلق الجميع إلى المنزل الذي اشتاقوا له كثيرا.

وهكذا تم اللقاء بين العشيقين ، لقاء كتب له أن يصطدم بعقبات ذات ظلمة حالكة ، وأمواج متلاطمة باعدت بين القلبين ، وظروف قصوى فرقت بين حمزة وشمس ، أخيرا زالت تلك الحجب ، وأمطرت تلك السحب ، مطرا نديا ، أضفت على ليلة المحبين السكينة في مثل هكذا أجواء ومناسبات.

وكنت لحظتها في أشد الاضطراب ، لقد كنت أخشى ذلك اللقاء أكثر مما كان حمزة وشمس يخافان على ضياعه ، فبلقائهما أخيرا أكون قد جمعت بين كائنين حبريين لا تتلبسني الكتابة إلا بالحديث عن فراقهما...

لكن حمزة كان في حاجة لذاك اللقاء ، الذي سيطول أسبوعا كاملا ، لم يكن فقط عريسا لشمس- الضحى ....كان عريسا للقرية كلها " قرية الجبل" بعد أن دافع عليها بكل نواجذه ،وساعد في الحد من خطورة ذاك المفترس الذي جثم لسنين على الأهالي ، بل قطع هو وجيل الأمل رأس ذاك الوحش المخيف الذي كان ينبعث من مياه النهر الجارف ، حتى أصبح ذاك الوادي نفسه قبرا أخيرا للوحش الشرير.

ذات ليلة من نفس الأسبوع ، تحدثت الصافية عن قصتها أخيرا ، لم يجبرها أحد على البوح ، بل كانوا قد تركوها لحالها حتى تستعيد نفسيتها السليمة.

قالت الصافية لجارتها الغالية بعد أن زارتها تلك الليلة ، بحضور العروسين :

- إن الذي وقع يا جارتي الغالية ،من الغرابة ما لا يمكنك أن تصدقيه بسهولة ، فلما قررت الخروج بمفردي نحو فاس وهي خطوة كانت

غير مأمونة العواقب ، إلا أن حرقة الكبد وهي تفقد أخبار وليدها لم تترك لي الخيار ...المهم أني كنت أسير نهارا ، وإذا ما أدركني الليل طلبت المبيت عند أهل المداشر المنتشرة على طول الطريق بين فاس وقرية الجبل ، ولم أمضي سوى يومين حتى قيد الله لي رفقة ، وهم أسرة مكونة من أب وأم وولدين كانوا يسيرون في نفس مسار طريقي ، فاستأنست بهم وأسرعنا الخطى نحو المدينة الكبرى ..

لكن تلك الأسرة لم تكن تود الوصول إلى فاس ، بل يريدون قرية كبيرة على مشارفها ، لذا وبمجرد وصولنا إلى التلال المشرفة على فاس ، ودعني رفاقي ، بينما أكملت طريقي لوحدي ... وما هي إلا مسيرة ساعات حتى اعترض طريقي ملثمان يركبان بغلين ، أشهرا سيوفهما في وجهي وطالباني بالوقوف ثم قيدا اللئيمان يدي ، بعد ذلك قصدا إحدى الكهوف التي كانا يتخذانها ملجأ للسطو على المارين من المسافرين.

ثم تكمل الصافية حديثها بعد توقف :

" لم ينزلاني هذان المختطفان لألتقط أنفاسي الخائفة من هول المشهد ، بل بدا أنهما كانا على عجلة من أمرهما ، فقد سمعت أحدهما يقول :

- سنرسلها إلى منزل القشتالي ، ونقبض أموالنا عينا "

رد الآخر :

" نسرع الخطى إذن إلى أن نقترب من مشارف حديقته ، ثم ننتظر حتى مغيب الشمس ، لكي لا ترانا العيون ، بعد أن شدد علينا حرس السلطان المراقبة ، إثر شكوى هؤلاء الأندلسيين بنا "

وأدركت حينها (تقول الصافية) أني وقعت في قبضة عصابة لصوص لا ترحم، وخمنت أن تلك العصابة لها شركاء في فاس ، ولسوف أعلم مع باقي الأيام ، أن هؤلاء المجرمين كانوا متخصصين في اعتراض أهل الأندلس القادمين من الطرد ، يسطون على ممتلكاتهم وما يحملونه من نقود ومجوهرات، ثم تطورت أعمالهم الإجرامية إلى بيع من وقع في يدهم من رجال ونساء وأطفال لبعض من نخاسي المدينة.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

تكمل الصافية سرد قصتها أمام ذهول ابنها وزوجته وجارتها الغالية :

-" وهكذا أيها الأحبة وجدتني طيلة سنين خادمة في حديقة القشتالي الممتدة على مرمى البصر ، والمحاطة بأسوار وأشواك ..دونها أهوال. وقد كان هذا يعمل على تحويل النباتات إلى عطور ، لذا غرس حقوله بالآلاف منها ، وكانت مهمتنا نحن جواريه وعبيده الكثر سقي الأشجار وتشذيبها ، وقطف الزهور تمهيدا لتحويلها.

والحق أن المعاملة لم تكن قاسية جدا ، كنا نحن النسوة نشتغل تحت سلطة امرأة سمراء من بلاد الزنج ، تدعى" فاتو"، ونلقبها نحن النسوة " فطومة" كانت جارية تباع وتشترى ، فلما صارت تتقن العربية وتعلمت فن تلك المهنة ، حررت من العبودية ، ونالت تلك المكانة ، لكنها بقيت في الأسر الاختياري.

في البداية (تواصل الصافية حديثها) صعب علي الأمر ، وفكرت في الفرار ، لكن ذاك بدا لي مستحيلا ، مع تقدمي في السن .. كانت " فاتو" تعلمنا كيف نشتغل ، وحينما نسرد لها قصة مأساتنا ، تبدي تعاطفا وتقول في النهاية أن الأمر ليس بيدها،وأن المكان تكتنفه السرية التامة .

تختم الصافية قصتها :

" وهكذا كتب علينا الأسر جميعا أنتما عند النصارى ونحن في بلاد المسلمين...إلى أن قيد الله لي الفرج ، رفقة النسوة اللائي كن معي ، وذالك أن القشتالي – وكنا لا نعرفه – ومعاونيه لما وصلت جيوش " مولانا عبد المالك" وسمعوا بسيرهم لمواجهة البرتغاليين ، انضموا إلى تلك الحملة طمعا في أن ينالوا الغنائم منها .

ولم يتبقى معنا سوى عبدان يحرسان الحديقة ، كان أحدهما قاسيا غليظ القلب يعنفنا إذا قصرنا ويشتمنا لأتفه الأسباب ، أما الآخر فقد أسر لنا يوما أنه سيعيننا على الهروب ، وكان قد تزوج سرا من إحدى النسوة اللائي معنا، بل وأخبرنا أنه سيرافقنا للجهاد – كما قال - والحق أنه كان إنسانا طيبا قوي الإيمان. وكانت تلك فرصة لم أضيعها ، فلما أحس بأن صاحبه قد نام ، فتح لنا الباب ، وحددنا

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

مكانا نلتقي به صباح الغد. تسللت إلى خارج الحديقة ، ثم تواريت خلف الأشجار ، حتى ظهر ضوء الفجر ، فاتجهت نحو المدينة...
قاطعها حمزة :
" وكيف عثر عليك البرتغاليون واقتادوك معهم إلى هنا، يا أماه !!
ضحكت الأم مبتسمة ، وأخبرت ابنها :
" يا حمزة ، إن المصائب لا تأتي إلا وهي مجتمعة .وسأكمل حديثي لتعرف ، فلما دخلت فاس ، وجدتها أشبه بمدينة أشباح ، فمعظم أهاليها خرجوا رفقة الحملة المباركة ، فلما سألت عن وقت خروجها أخبروني أن الجيش غادر منذ خمسة أيام ، فبت ليلتي هناك في أحد الفنادق بعد أن أديت لهم الثمن بنقود كنت قد كسبتها من عملي ، وفي الغد خرجت برفقة النسوة وذاك الرجل العبد ، كنا نتتبع آثار الجيش ، وأحيانا نأكل من مخلفاته ونشرب من القرب التي تركها ..تكمل وقد بدت من نواجذها ابتسامة خفيفة:
إلى أن فقدنا أثره بعد وصولنا إلى مستنقعات كثيرة المياه ، لم تترك لنا أثر القيافة ، فلما أن اجتزنا الأراضي الموحلة ، وأشرفنا على جبل قريب من النهر ، لمحنا جمعا عظيما يتراءى من بعيد ، حتى أننا لم نتبين ما هو بعد أن بدا لنا كقطيع من الوحيش أو غنم ترعى عن بعد .
اعتقدنا أنه جيش مولانا ، فسررنا لذلك ، غير أن فرحتنا لم تكتمل ، بعد أن أحاطت بنا خيول للبرتغاليين كانوا في فرقة استطلاعية لتأمين طريق جيشهم الغاصب ، كان ذاك الجيش هو جيشهم الجرار ...
تنهي الصافية حكايتها المرة :
" وهكذا اقتادونا إلى معسكرهم ، كمقدمة لغنيمة الحرب التي كانوا واثقين في كسبها ، بدا ذلك من خلال قهقهاتهم وهم يجروننا بعنف ويرمونني بين النسوة.."
تنظر الصافية إلى شمس – الضحى التي ابتسمت بعد أن وصلت الصافية إلى هذا الحد من حديثها ، وحينها تم لي اللقاء مع زوجتك يا ولدي ، فرب ضارة نافعة .

كان حمزة يستمع إلى حديث أمه ، يعتريه الغضب ، ويعلوه الحقد ، وتنتابه نوبات عصبية جراء ما وقع لوالدته ، كان يتمنى لو التقى مع هذا المدعو القشتالي ، فيفصل رأسه عن جسده ، أما هؤلاء البرتغاليين الغاصبين فقد نالوا من القصاص ما نالوا ...ثم وجه كلامه لأمه ولشمس:

-" سأعمل يا أمي حالما تنتهي مدة إجازتي أن أخبر نائب السلطان بفاس حتى نوفر الأمن لإخواننا الأندلسيين ، حتى لا نجمعهم على نارين :

* نار الطرد من بلادهم، على يد ملوك إسبانيا *ونار السطو على ممتلكاتهم ، بعدما لاذوا بنا.

أما انتقامه من القشتالي فتركه للأيام ، بعد التأكد من استحالة أن يعثر عليه دون مرافقة أمه له ، وهي المتعبة التي لا يمكن لها أن تبارح " قرية الجبل ".

في الغد ، طلبت الصافية من ابنها طلبا لا يمكن له أن يرفضه ، قالت له بعدما أعدت لهما شمس- الضحى الفطور :

-" أريدك يا ولدي أن تصعد معي إلى ضريح " سيدي الشريف " ، فلطالما رأيته في منامي ، أراه دائما يناولني راية بيضاء ، ويخبرني بتلك العبارة التي قالها لكما ذات يوم عندما صعدت عنده برفقة جدتك " مي حليمة " ، كان يقول لي :

-" إن في نهاية هذا النهر قدر حمزة .

أومأ حمزة بالموافقة ، وأخبر أمه بما يعتريه من إحساس تجاه ما قاله " شيخ الجبل " ، ثم قال لها :

-" أنا أيضا يا أماه ، لم تفارق خيالي تلك العبارة ، بل سأقول لكما سرا (إن هذه الكلمات كانت ترافقني في أحلك أيامي ، كانت كبلسم يشفي جراحي ، صداها يجعلني أقوى رغم ما مررت به من ظروف.."

تدخلت شمس في الحوار الدائر :

" ولعلك أصبحت تعلم يقينا أن تلك العبارة صارت أشبه بتحقق نبوءة قديمة ، تمعن يا حمزة في كلماتها ، وطابق مفرداتها مع ما

وقع في هذا الأسبوع وستجد دلائل على صحة كلامي ..ثم تساءلت الفتاة الموريسكية مستغربة :

-أليست كلمة النهر تشير إلى انتصارك على عدوك !!

- "ثم كلمة النهاية ، فربما كان هذا الشيخ الجليل يقصد بها مشاركتك في نسف القنطرة، فكثيرا ما كانت الجسور معبرا لتحقق الأقدار"..

قاطعها حمزة :

-" ومعبرا أيضا لنهاية الأعمار .."

ثم ابتسم في وجه زوجته التي صدمت لهذا الكلام ، كانت عبارة لا أدري كيف خرجت من لساني (أتبع حمزة حديثه بقهقهة رجت المكان)

قالت الصافية : " نجاك الله من كل مكروه ، حتى نرى أولادك وأولاد أولادك. ثم استوت قائمة بعدما تزودت بقربة ماء وقطع سكر للطريق .

لكن شمس- الضحى ألحت عليهما بأن ترافقهما رغم عدم تعودها على تسلق الجبال الوعرة ، كما هو الشأن بالنسبة لحمزة وأمه ، ورغم محاولة ثنيها عن قرارها إلا أنها أصرت قائلة :

- لقد والله تشوقت لأن أرى قبر هذا الذي أخبرنا بمصير معركة قبل أن تقع بأكثر من عشر سنوات.

صعد الثلاثة ذاك الجبل الذي لاذ به " سيدي الشريف " الولي الصوفي الزاهد في الماديات المنجذب للروحانيات ...حارس " قرية الجبل " من كل فناء، وصاحب البركات التي شملت كل الآفاق ..هكذا كانت نسوة القرية ترددن كلما ذكر " شيخ الجبل " في حضرتهن.

والحق أن الصافية لم تكن لتشكل الاستثناء ، فحتى قبل أن تشد الرحال لتبحث عن ابنها قبل سنين كانت قد صعدت الجبل ، وطلبت الله عند قبر سيدي الشريف أن يحقق لها غايتها...وحتى بعد تلك المعاناة التي تكبدتها ، لم تفقد الأمل في لقاء حمزة والعربي ولد مي حليمة ، وكانت الليالي التي تراهما في منامها تكون أجمل لياليها ..

واليوم وقد تحقق نصف أحلامها ، أفلا تكون شاكرة لشيخ الجبل ، الميت منذ عهد ؟؟؟

-"هكذا هم أولياء الله ، يحكموننا من تحت قبورهم "....جملة همس بها حمزة سرا ، وهو يعلم أن أمه كغيرها من نساء ورجال القرية البسطاء يؤمنون ببركة الأضرحة، ويقدسون ما يأتي من عندهم ، وبالخصوص في زمن الأزمات .....كان حمزة يعرف أن أمه قد تصدر منها طقوس يأنف أن يراها،لذلك قال لها قبل أن يلجوا الضريح:

-اعلمي يا أماه أن زيارتنا هذه ، ليست إلا لشيء واحد : الدعاء للشيخ بالرحمة والمغفرة ، أوعيت قولي يا أماه؟"

- وعيت ذلك يا بني ، لست هنا لأشرك بالخالق ، إنما جئت للدعاء.

ولما قالت كلامها ، ودخل الثلاثة ، سلموا على قبر الشيخ ، وقرأ حمزة الفاتحة ، ثم دعا له بالمغفرة ، لكنه وهو يقلب عينيه لاحظ آثار الحناء والشموع فاستنكر ذلك ..

وسرعان ما خرج حمزة وشمس تاركين الصافية لخلوتها ، هناك أشرف الشابان من أعلى الجبل ، على مكان حدوث المعركة ، كانت فرصة ليتذكر فيها العاشقين لقائهما وغراميتهما وبطولات حمزة فوق الجسر وبين التلال ..

وحينما رنا الفتى ببصره إلى حيث النهر قال :

- أنظري يا شمس ... ذلك المكان الساكن ، لو أعدنا الزمن إلى الوراء أسبوعا مضى لرأيته مملوءا خيلا ورجلا.والآن ساكن لا روح فيه ، كأن شيئا لم يكن . !!

ردت الفتاة بهدوء :

- صار كل ذلك يا حبيبي ملك للتاريخ ، سيخلد الحكواتيين تلك الملحمة حفاظا عليها للأجيال القادمة ، أما أنت والراعي مفتول العضلات فقد قدمتم دمائكم في تحرير أسطرها.

- عباس .... آه عباس الراعي مفتول العضلات ، عاش بسيطا ومات حميدا ، كان ذا عزيمة لا تفل ،(مات عن مبدأ آمن به ، قالها حمزة ، مترحما على الراعي الشجاع).

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

عند انتصاف الشمس كان الثلاثة قد غادروا الضريح المقام في أعلى قمة من الجبل المشرف على القرية .

وقبل أن يكتمل الأسبوعين اللذان منحا للفتى كفترة راحة، حصل مستجد خطير جعل نائب السلطان في فاس يرسل مبعوثه إلى حمزة ليخبره أن يتجهز مجاهدو " قرية الجبل " وباقي القرى المجاورة للاستعداد ، بعدما وصلت أخبار للسلطان تفيد أن إمبراطور إسبانيا القوي ، وخال سيباستيان " فيليب الثاني بن شارلكان " قد نصب نفسه حاميا للثغور البرتغالية المحتلة على الشاطئ المغربي ، بل عزم على إرسال أسطول ضخم من السفن الحديثة التسليح لاحتلال " مصب النهر " وإخضاع المدينة المنيعة :
-العرائش .
دوت المقولة الشهير لفليب الثاني في أرجاء فاس ، حينما قال للكاردينال " سانتا كروز " الذي سلمه قيادة الأساطيل البحرية الإسبانية والبرتغالية ، قائلا له :
-" العرائش وحدها تساوي إفريقيا كلها"
كان الإمبراطور يدرك ما للمدينة من موقع يجعل السيطرة عليها بمثابة التحكم في المراكب العابرة لأعالي البحار ، كما أن احتلال العرائش ستشكل ضربة استباقية لمشروع السلطان المنتصر " أحمد الشريف " في استرجاع المدن المحتلة :
- كأصيلا ، طنجة ، مليلية ، وسبتة ..
جعلت هاته الأخبار حمزة يقصد رفقة فرسانه دار الإمارة بفاس ، ليأخذ التعليمات من قائدها حول كيفية التحرك لإغاثة المدينة، وهكذا ودع أمه وزوجته شمس – الضحى وغادر مع تباشير الصباح الباكر .
أما السلطان " أحمد المنصور " فقد ترك خيرة فرسانه ومعظم فرق المدفعية التي غنمها من البرتغاليين في يد عامله على فاس ، مخبرا إياه بضرورة تعجيل التحرك نحو العرائش ثم أصيلا لاسترجاعها من يد المهزومين ، وبعد مكوثه مدة يسيرة بفاس أعطى أوامره للتحرك نحو العاصمة مراكش حتى تتم له البيعة هناك ، ويثبت جهاز حكمه ، ثم العودة لتحرير الثغور.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

وصل حمزة لفاس مساء اليوم الرابع لخروجه ، واستقبل بحفاوة من لدن قائدها وحاشيته ، فقد سبقت سمعة الفتى وصوله للمدينة ، وطلب منه القائد أخذ قسط من الراحة ثم الحضور صباحا للاجتماع العاجل، أما حمزة فقد كان له شغل آخر سيقضيه بعد أن قدم فاس ، خرج ليسأل عن بائع عطور يسمى القشتالي، ذاك الذي كان يحتجز والدته الصافية، لكنه لم يجد خبرا يدله على النخاس البغيض ، فما كان من حمزة إلا أن توجه عند أحد بائعي العطور المشهورين بعدوة القرويين يدعى " العطار حمدان" هذا الذي روى للفتى ما طمأن قلبه حين قال له :

-" لعلك تسأل عن صاحب الحديقة ، فقد لقي جزائه في حديقته تلك التي جعلها قلعة لجهنم "

وكيف حصل ذالك يا عم ؟؟

قال التاجر حمدان :

-" بعد عودته سالما من وادي المخازن ، وقد حمل من الغنائم الشيء الكثير ،منهم العديد من الأسرى البرتغاليين الذين دفع فيهم جزء من أمواله ، وكانت ضمنهم إحدى النصرانيات ، هاته الأخيرة التي لم تستسغ هزيمة بلادها ومقتل ملكها ، فطعنت القشتالي في بطنه بخنجر كانت تخبئه تحت ثيابها ، بعدما كان الثعلب يود أن يتسلى بها"

قال حمزة :

" إن عاقبة الظلم وخيمة ، يا عم ، لقد نال ما يستحق من جزاء ".

رد التاجر حمدان :

" ويا لسوء العاقبة ، يقال أنه مات مخمورا ، ولا شك عندي يا ولدي أنه قد أساء إليك ، حتى جئت تستقصي أخباره ، فإن شروره لم تستثني أحدا"..

أجاب حمزة

" أجل يا عم ، كان يحتجز أمي ، حتى انفلتت منه بأعجوبة ، وكان لي معه حساب عسير ، غير أني أتركه لمصيره المشئوم".

شكر حمزة التاجر حمدان ،واستغل الفرصة لاقتناء عطرين لأمه وزوجته ، كما سر بالخبر الذي سيحمله لوالدته ، فالإنسان يسر للقصاص من جلاده مهما بلغت درجة مسامحته له.

وفي الصباح عقد الاجتماع الذي ذكر بنصر وادي المخازن المجيد ، وجدد القادة العسكريون فيه البيعة للمنصور السعدي ، في حين أخبر والي فاس أن فرقا من الجيش المغربي ستتجه من فاس نحو العرائش في أقرب وقت ، وما على حمزة إلا تجميع أبناء المنطقة العارفين بخبايا المنطقة ، وبمقاومتهم الطويلة للمحتلين من نصارى المدينة وغيرها ، كما أن السلطان " أبو العباس أحمد " سيلتحق بالعرائش حالما ينظم شؤون العاصمة.
وهكذا عاد حمزة ولد العربي بن مي حليمة مع فرق استطلاعية نحو " قرية الجبل " لتكون منطلقا لهم نحو العرائش ، على أن تكون الرحلة نهرية فهي الطريق الأقرب التي ستوصلهم إلى مصب النهر حيث تستلقي العرائش ثملة على ضفة اللوكوس اليمنى.
مرة أخرى يكون قدر حمزة قد تجدد مع النهر ...بعد أن تم تجميع مراكب صيادي سمك الشابل للإبحار نحو الثغر المهدد.
- فهل سيكون النهر الذي تفتقت بطولات الفتى وسط مياهه ، هو نفسه الذي سيعيد له اعتلاء المجد من جديد ؟
- أم إن للقدر نظرة مغايرة للنهر ؟؟
أسئلة وأخرى كانت تجول ببال الفتى وهو يبحر رفقة الكتائب نحو مصب النهر ، وهو يتذكر مع رفاقه ما وقع في المعركة الكبرى التي غيرت الكثير داخلهم ، وجعلت قلوبهم تميل نحو ركوب المخاطر وهم في قمة الفخر .
وهكذا قطع المبحرون النهر الهادئ ، وهم يتساءلون متعجبين ، حيث قال أحدهم :
-" أنظروا يا رفاق ، للنهر كيف كان مائه هادرا يوم المعركة مما جعله مقبرة لكل من أراد الفرار من النصارى ، واليوم تنساب مياهه على إيقاع هادئ ورياح عليلة تقودنا برفق نحو المدينة"
أجاب أحد أبناء قبيلة مجاورة لقرية حمزة :

-" إن لله جنود من ماء ".

أما حمزة فكان يفكر في شمس – الضحى ووالدته ، لا يود أن يفارقهما ، لكن نداء وطنه يجعله يتقدم نحو المخاطر بعد توالي تلك الأحداث، ثم إن الفتى الشجاع كان له هدف بعيد المنال :

- كان ذلك الهدف هو اقتحام أسوار أصيلا ، وطرد البرتغاليين منها ، والبحث بعدها عن والده :

-العربي ولد مي حليمة.

- وحموه ابن شرف الاشبيلي .

فلا زال الفتى الجبلي لم يفقد الأمل في رؤيتهما ، على الرغم من تداول الكثير من الشهادات التي تنبئ عن مغادرتهما للمدينة ،الأول جنوبا نحو مستعمرات البرتغال ببلاد الزنوج ، والثاني أبحر قسرا مع الكرافيلا المتجهة نحو مستعمرة " ريو " بالبرازيل.

رست المراكب الاستطلاعية قبيل مصب النهر ، وبدون مضيعة للوقت أنزل الشبان الأربعة مدافع وباقي الأسلحة التي قدموا بها ، وقد كان في استقبالهم قائد المدينة " الشيخ لعروسي "– هذا الذي ظل على ولائه للملك " عبد المالك السعدي " فترة صراعه مع ابن أخيه الهالك ، وأبدا مقاومة شديدة للمراكب البرتغالية التي حاولت الاستيلاء على المدينة بناء على " وعد التسليم " الذي قطعه لهم الملك المخلوع في شتاء **1576** لميلاد المسيح .

وقد أخبر قائد العرائش حمزة وفرقته أن السفن القشتالية تقوم بمناورات تروم من خلالها قياس قوة المدافع المغربية وشدة الحراسة عليها ، ويكمل الشيخ العروسي :

-" أننا وبحمد الله تصدينا لمحاولاتهم الأولى ، وقد جئتم في وقتكم ، فلا نأمن من وصول مدد القشتاليين لمحاصرتنا ، بعدما أخبرتنا العيون عن استقرار قائدهم بطنجة هذا الذي وكل له الطاغية فليب الثاني أمر قيادة الجيوش البحرية التي ستدافع عن قلاع البرتقيز ، ويدعى :

-" الكاردينال سانتا كروز "

ويكمل الشيخ العروسي حديثه :

-" لقد بلغنا أن هذا الريس يعد صديقا للطاغية وكان ممن ساهموا في هزم الترك في تلك الموقعة البحرية التي يسمونها " لبانتي " وذالك قبل سبع سنوات ، وهو كما عرف عنه يشبه " خير الدين " في سطوته البحرية ، كما أنه هو الذي أقنع الطاغية بإرساله للدفاع عن قلاع النصارى بعد أن دحرناهم في وادي المخازن .

حينها تدخل حمزة :

-" الحق ما قلت سيدي القائد ، إذن فلنعجل بنصب المدافع حتى نعزز بها وسائل دفاعاتنا ، وأخبرك سيدي أن قائد فاس في إثرنا هابا لتقديم العون لنا ، ومن بعده مولانا السلطان " المنصور بالله " ...وقد وعدنا باسترجاع أصيلا وطنجة وسبتة ومليلية والبريجة من يد النصارى بعون الله.

وقد كان عاقدا العزم على التوجه صوب البريجة ، غير أن أخبار العرائش جعلت تعديل الهجوم أمرا ضروريا ... فكلنا نعلم ما قدمت لنا مدينتكم من عون كثغر متقدم في مواجهة المحتلين الذين كانوا يتغيون الاستيلاء على كل سواحلنا ."

وهذا الذي جعل الشيخ العروسي يؤكد :

-" كل ذلك، جعل من المدينة محط أطماع نصارى البرتغال والاسبان ، بل وحتى الترك منذ عهد سليمان الأكبر ".

وفي المساء ،ما شوهدت سفن النصارى تغادر ساحل العرائش شمالا إلى مراكزها بأصيلة وطنجة ، عمل القائد العروسي ورفاق حمزة على تعزيز قلعة المدينة المشرفة على مصب النهر، وساحل البحر، بالمدافع الأربعة بإحكام تام ، حتى تتم مساعدة الأبراج على الصمود في وجه نيران القشتاليين ، ريثما يأتي السلطان على رأس جيشه.

وهذا ما تم بالفعل ، فلم تمضي سوى خمسة أيام بلياليها حتى رصد البرج الشمالي للقلعة قدوم عشر سفن قشتالية تحمل أعلاما صفراء ، وما إن اقتربت حتى دوت مدافع العرائش فوق رؤوس المهاجمين ، وقد أصابت فوهة النيران السفينة التي كانت تقصد مدخل النهر إصابة أشعلت النيران فيها ، ففرت السفن الأخرى في

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

حين انقض المقاومون على السفينة المعطلة، والتي تبين أنها مزودة بمدفعين و تحمل اثنا وعشرون جنديا ...

فوق السفينة لفظ عشرة من المهاجمين أرواحهم ، بينما جرح خمسة منهم بعد تبادل إطلاق النار مع المغاربة الذين كان حمزة ضمنهم ، بينما أسر الباقون واقتيدوا بأمر من سيدي احمد العروسي إلى سجن القلعة ، في حين قدمت الإسعافات للخمسة الجرحى لكن إصاباتهم البليغة لم تسمح لهم بالعودة إلى الحياة.

علم الشيخ العروسي وقادته أن السفن الفارة ستبلغ الخبر للكاردينال " سانتاكروز " وأن على المدينة أن تستعد المرة القادمة لهجوم كاسح...لذا استشار مع حمزة وباقي القادة ، بعد أن استجوب الأسرى الذين نطق بعضهم تحت التعذيب أن :

-" الإسبان يعدون العدة لغزو العرائش بأي ثمن كان ".

ذاك الذي جعل حمزة يسرع في إرسال أحد رفاقه نحو فاس لإبلاغ واليها بخطورة الموقف ، ومن تم إخبار السلطان " أبو العباس أحمد " قصد التعجيل في نجدة المدينة المهددة .

وهذا ما تم بعد شهرين بوصول بقية الجيش السعدي الذي كان مع والي فاس إلى أبواب العرائش ، وقد عجل بمغادرة المدينة الإدريسية حتى قبل أن يصل السلطان من مراكش وذلك بعد وصول خبر آخر من القائد العروسي يخبرهم بنزول الكاردينال الإسباني الشرس " سانتا كروز " أمير البحر وقائد أساطيل الإمبراطورية الإسبانية في أعالي البحار.

ولم تلبث أن دارت معارك بحرية ضارية ، صمدت فيها أسوار المدينة ، في حين أصدر القائد العروسي أمره لحمزة بغلق مصب النهر بسفن مسلحة حتى لا تخترقه السفن القشتالية وتتمكن بعد ذلك من تطويق المدينة ، خاصة أن واجهتها البرية أقل تحصينا ، في حين أن السفن المهاجمة مسلحة بمئات الرجال والعتاد.

وقد أثمر القصف عن تصدع البرج الشمالي وانهيار الأسوار الأمامية ، وطمع الإسبان في النزول على الشاطئ تمهيدا لاقتحام المدينة ، غير أن القائد العروسي كان قد أرسل لطلب المدد من

القبائل التي شاركت في " ملحمة تامدة " فهبت الرجال من كل حدب وصوب ، واستطاعوا رد الهجوم الكاسح للإسبان.

ويحكي الرواة أن المعارك استغرقت أسبوعا كاملا من المواجهات العنيفة، أبان فيها المغاربة عن صمود عز نظيره ، وقاتل حمزة كما يفعل دائما ، مانعا هو وكتيبته السفن المعادية من :

-" اقتحام النهر ....ذاك المجال الذي لا يسموا مجده إلا في مياهه".

غير أن حمزة في هذه المرة بدا أنه يقاتل فعلا في نهاية هذا النهر ، وستعلن الساعات القادمة من المواجهة :

-" كيف سيتحدد القدر ...عند آخر هذا النهر؟ ."

وقد وصلت للإسبان المهاجمين أخبارا من أصيلا تفيد بوصول " السلطان السعدي " ومعه جيش جرار ، وأن وجهتهم أصيلا ، لذا أمر الكاردينال " سانتاكروز " بوقف الهجوم والعودة إلى طنجة على جناح السرعة.

والحق أن لتخوف الإسبان ما يبرره ، فقد وصل الملك الشريف لإغاثة المدينة المحاصرة ، عازما على استرجاع أصيلا وطنجة ...

وهكذا استقبلت المدينة المنيعة سلطانها بالترحاب ، وقام بنفسه في الغد يتفقد أسوار المدينة ، ويعيد ترميم ما هدم منها ، بل وأمر بزيادة تحصينها قدر المستطاع ، كما رفع من عدد المراكب التي ستحميها من كل هجوم محتمل.

وقد أرسل بمبعوثيه إلى الإمبراطور الإسباني فليب الثاني ، يخبره بعاقبة الهجوم على بلاده ، ويحذره من مغبة ذالك ، مهددا إياه في رسالة شهيرة ، أنه :

-" سيتحالف مع سلطان القسطنطينية مراد خان ، ويسلمه العرائش كميناء لرسو الأساطيل التركية التي لا تعد ولا تحصى ..."

كان فليب الثاني وهو السياسي المحنك ، يعرف ما لهذا التحالف السعدي- التركي من خطورة على الجزيرة الأيبيرية ، لذا قبل بالهدنة على مضض ، وفي غصته :

-" مرارة الفشل في إخضاع جوهرة اللوكوس ...العرائش".

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

ستلعب التطورات الكبرى في حوض المتوسط دورها في تأجيل السلطان " أحمد الحسني " غزو أصيلا إلى حدود العام **1589** للميلاد ، حيث سيتمكن هذا الملك العبقري من استرجاع هذا الحصن المنيع والذي تطلب احتلاله من طرف الملك البرتغالي " ألفونسو الخامس" أن يحضر بنفسه إلى هذا الحصن الساحلي العتيد ، بأسطول بحري ضم **477** سفينة للحرب والمؤن ، تحمل ما يقارب الثلاثين ألف برتغالي من جنود تلك المملكة البحرية الرهيبة.

كان هذا الحدث المفجع لتلك المدينة في العام **1471** للميلاد ، بعد إخضاع طنجة بأشهر قليلة ، وقد ترتب عنه قتل ما يقارب الخمسة آلاف من ساكنة المدينة ، و أسر ما يقارب خمسة آلاف مغربي بيع معظمهم كعبيد للبنادقة تجار إيطاليا العظام.

وقد استبسل سكان أصيلا في الدفاع عن مدينتهم وكان معظمهم بحارة أندلسيون . بل وقتلوا مائتي مهاجم ، غير أن تأخر " الشيخ الوطاسي " في نجدتهم جعل المدينة تسقط في يد البرتغاليين مدة قرن من الزمن ، حين دفعتهم هجمات العروسيين إلى هجر المدينة وإخلائها مؤقتا ،وذلك في ربيع العام **1535** للميلاد.

وهكذا شيد البرتغاليون في هذا الثغر حصونا عملاقة وأبراجا للمراقبة كان أهما : " برج القمرة " ...ومن هناك صاروا ينظمون هجماتهم العنيفة على ساكنة المداشر والقرى المجاورة يسطون على محاصيلهم من القمح والشعير والذرة البيضاء ، ويستاقون مواشيهم ، بل ويأسرون كل ما تأتى لهم من الرجال والنساء والأطفال.

وكان العربي ولد مي حليمة وحماره من الضحايا الكثر لتلك الهجمات ....التي بدت وكأن لا نهاية لها ....إلى أن أنجب الرجل المغيب، من صلبه من ساهم في اقتلاع شأفتهم.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

كانت إصابة بالغة تلك التي تلقاها صدر الفتى ، شظايا من كرة المدفع التي صوبتها إحدى مدافع الكاردينال " سانتا كروز " نحو مصب النهر .

صرخ أحد المتطوعين :

-" أسرعوا بنقل القائد حمزة إلى داخل القلعة "

وهكذا نقل الفتى تتقاطر منه الدماء مغزارة ، وما لبث أن فقد الوعي ، لا يدري مرافقوه أهو حي أم ميت ؟؟

أوصى الشيخ العروسي لحمزة بطبيب مسعف ، كان من أفضل الممرضين بالمدينة ، ويدعى:

-" أبو بكر التلمساني ، من أسرة ورثت الحكمة والطب أبا عن جد "

قدم الطبيب الجليل خدماته للفتى الجريح ،والذي استعاد وعيه في منتصف الليل ، بعدما استخرجت بعض شظايا النار من صدره ، رغم أن الفتى الجبلي كان يرتدي ترسا للحماية.غير أن قوة الطلقة قد أصابته مباشرة هو ورفيقين له.

في اليومين التالين قدمت لحمزة العناية المطلوبة ، بتوصيات من السلطان : " أحمد الشريف السعدي " حينما أخبر بأن :

-"بطل ملحمة الجسر " قد أصيب بعد دفاعه عن مدينة النهر.

وقد زاره السلطان بنفسه ، واطمأن على حاله ، وأخبره أن المدينة الآن غدت آمنة ، وأن الخطوة القادمة ستكون أصيلا .

كان حمزة يود لو يرافق حملة المنصور لطرد هؤلاء اللذين عرضوه للأسر ، وفتكوا بوالديه ، بل وأذاقوا شمس-الضحى ألوان الهوان .

-إنهم نصارى المدينة..

لكن الطبيب التلمساني نصحه بالراحة ، حيث ظل ثلاثة أيام تحت إشرافه ، وما لبث أن طلب حمزة أن يزور أسرته هناك في قرية الجبل .

بدا أن الفتى قد اشتاق لأمه التي لم يجالسها إلا لزمن يسير ، كما اشتاق لشمس- التي لم يقضي معها من الوقت إلا النزر القليل .

غير أن الحكيم " أبو بكر التلمساني " نصح حمزة إن هو عزم على السفر أن لا يركب الفرس ، لأن ذلك سيحرك الجرح الملتئم ،

ونصحه بركوب القارب ، مادام أن قريته على مشارف النهر، وهو ما استحسنه الفتى.

كان حمزة يشعر بأن قدره قد خيط مع مياه هذا النهر ، لذا فضل أن يرافقه اثنان من أبناء قريته كان أحدهما صيادا للسمك وخبير بالتجديف ، كما أنه مضطلع على أوضاع النهر من حيث التدفق والأماكن الوعرة الاجتياز.

وفي الصباح الباكر من أحد أيام شهر سبتمبر /أيلول من العام **1578** للميلاد ، ركب حمزة القارب نحو قريته ، زوده الطبيب بسرير حتى يتكئ عليه إن شعر بدوار النهر ، غير أن الفتى بدا في عزيمة قوية وهو يلوح بيديه إلى الذين كانوا يراقبونه من فوق القلعة ... كانوا يرون فيه البطل الذي ساهم في نصر " وادي المخازن" ضد البرتغال ...ويلمحون فيه الشهامة التي جاءت به مدافعا عن قريتهم ضد الإسبان..

والحقيقة أن حمزة كان يشعر بآلام الموت تدنو منه حالة أن أصيب ، كان يدرك أنها النهاية ، لكنه أصر على أن يكون مثواه الأخير بين أحضان أمه وزوجته ، لذا آثر الرحيل إلى حيث يجب أن يكون.

كان ذاك الرحيل الأخير ، فلم يمضي على المركب إلا نصف النهار ،إلا وحمزة يطلب من رفاقه التوقف ، كان يريد أن يوصيهم وصيته الأخيرة ، وبعد جهد جهيد سمع الصياد عيسى آخر ما قاله الفتى الجبلي:

-" إن أنا مت ، فادفنوني على مشارف النهر ، إلى جوار رفيقي الراعي عباس مفتول العضلات.."

حاول الرفيقان إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، لكن القدر كان سباقا إلى حمزة من محاولاتهما، لذا لقنا رفيقهما الشهادة ، وأسنداه على وضعية الاستلقاء.

كان وهو يغادر ينظر بعينيه إلى المدى البعيد لعله يلمح ذاك الضريح المنتصب على جبل قريته حتى يخبر ساكنه بأن ساعة الرحيل قد أزفت..

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

لم تمضي على وفاة حمزة ثمانية أميال حتى رسا المركب على ضفة النهر بعد أن وصلا إلى مكان المعركة التي كانت ساحتها مجدا لذلك المسجى على سرير المركب .

أنزل الرفيقان صاحبهما ، دامعي العيون ، من رحيل بطل قريتهما ، في هذا السن ، دون أن يحقق كل أحلامه ، وإن أنجز هدفه الأسمى:

-"وقف هجمات شبح النهر على قرية الجبل ".

وحينما أنزلاه من على المركب ، وهو يرتدي لباس الحرب ، كان كل واحد منهم ينظر إلى الفتى ، ويتساءل في قرارات نفسه:

أما الرحيل فلا بد أنه ... سيأتي يوما ما ، ولو خير حمزة في أي مسارح الأرض يكون موته ، لقال:

-" في ساحة المعارك ، ولا شك في ذلك "

لم لا ؟؟

والموت لا يقترن مع المجد إلا في ساحات الوغى، هناك يموت الأبطال فتولد أساطيرهم التي تحيى أبد الدهر...

- اسأل يا صديقي ، أين كتب المجد لعبد المالك " المعتصم بالله السعدي" ؟؟

- وتتبع أخبار الدون سيباستيان ، لترى أن نقطة الضوء الوحيدة التي يشفع له بها شعبه ، هو موته في ساحة وادي المخازن...

- وهل قصة عبد الرحمن الغافقي " القائد الأموي وفاتح فرنسا " بغريبة عنك ، حينما سقط هذا القائد هناك في ساحة بلاط الشهداء ببواتييه الشهيرة ، كان ذالك في العام **732** للميلاد.

- والإسكندر العظيم ، ألم تدركه الموت، وهو في ريعان شبابه ، لم يتجاوز الثالثة والثلاثين إلا بشهور ، بعدما فتح أقاصي الشرق المجهولة ؟؟...

كان لا بد أن يصل خبر حمزة إلى أمه الصافية ، وزوجته شمس-الضحى ، وكل القرية .. خيم الحزن بسبب هذا الخبر المفجع ، غير أن الصافية امتلكت من الشجاعة ما جعلها تطلق زغرودة وتصلي على النبي ، بعد أن علمت أن :

-" ابنها الوحيد مات في سبيل الدفاع عن دينه ووطنه وأهله "

-وهل يموت المرء إلا دفاعا عن تلك المقدسات **!**

أما شمس- فسالت منها عبرات الحزن مغزارة ، كانت تدرك أن زوجها الفقيد ، يمثل لها كل أهلها ،كانت ترى فيه **:**

-الأب الذي اختطفته الأقدار.

- وأخويها اللذان احتجزا في الديار .

- وترى فيه قدرها الذي خط مضطربا كأمواج البحار.

- ثم إنها الوحيدة التي كانت على يقين أنها تحمل في أحشائها سرا من الأسرار...

ذاك السر الذي ستخبره ل " الصافية " **:**

-أنها بعد حين ستصير جدة من الجدات .

كان وقع هذا الخبر بلسما شفى بعضا من جروح فقد حمزة ، عاشت الصافية على أمل نمو حفيدها أو حفيدتها في بطن شمس- الضحى " فتاة الأقدار بامتياز "....

غير أن الصافية ما لبثت أن لحقت بابنها بعد ثلاثة أشهر على رحيله ، هي أيضا لم تستعد صحتها بعدما لقيت من معاناة في ضواحي فاس ، وما تلقت من صدمات ليلة المعركة الضارية.

رحيل الصافية كان صامتا هذه المرة ، بكتها جارتها الغالية بحرقة ، وحزنت على فقدها زوجة ابنها شمس أيما حزن ..

وبعدما انتهت مراسيم الدفن وطقوس العزاء ، كانت الفتاة الجميلة قد عقدت العزم على **:**

- الرحيل .

خاطبتها الغالية **(**الجارة الطيبة**) :**

- إلى أين يا ابنتي **!** فمكانك هنا بيننا.

ردت الفتاة بتأدب على جارتها **:**

- يا خالة ، إن هذا المكان سيسجنني ...سيجعلني أسيرة للذكريات ، كل ركن فيه سيذكرني بفقيدي ... لذا فقد عزمت، ولا راد لقضاء الله.

- فإلى أين يا ابنتي ؟؟

- إلى تيطاوين يا خالة ، عند العم شمويل ، كما أني سمعت مذ كنا في ديارنا بالأندلس ، أن الكثير من أهلي قد نزلوا بالمدينة."

تضاربت الروايات حول مصير الفتاة، البعض قال أن أهل " قرية الجبل " أقنعوها بالبقاء معهم ، وأنها أنجبت ولدا جميلا يشبه والده في كل شيء ، وأنه شارك وهو شيخ قد تجاوز المائة ، في ملحمة استرجاع مدينة النهر " العرائش" من يد الإسبان عهد السلطان العلوي " المولى إسماعيل " بعد أن ظلت في أيديهم قرابة الثمانين حولا ...كان ذاك على ما تذكره تلك الأخبار المتضاربة ، وغالبيتها روايات شفوية تناقلتها ألسن الجبليين في العام الميلادي **1689**.

أما باقي الحكايات الأخرى فتذكر أن شمس – الضحى رحلت رفقة قافلة تجارية إلى تطاوين ، وأنها ظلت هناك ترقب البحر ...

- كانت وهي تنظر إلى أمواجه ترسم خريطة لوطنها "الأندلس" ذاك الوطن الذي تبخر كالأمواج المتلاطمة على الشاطئ الصخري للساحل.

- ربما تسرد الروايات قصتها مع البحر في كونها كانت تعيش على أمل أن تجود عليها مياهه الزرقاء بخبر فرار أخويها من جحيم الشاطئ المقابل،أو تسمع من المراكب عن خبر ابن شرف والدهاالمختفي منذ دهر...أو أن شمس كانت تحب أن تهب عليها رياح الشمال البحرية حتى يلامس قلبها بعضا من نسمات الفردوس المفقود.

على أن الحكـــــواتيين الذين أبدعوا " قصة حمزة وشمس" كانوا يتفننون في جمع العشيقين على قدر الماء:

- شمس – الضحى... بالبـــــحر.
- وحمزة ... بالنـــــــهر .

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

قالوا عن " جسر على وادي الموت" :

محمد البوعبيدي ،شاعر وروائي مغربي :
رواية "جسر على وادي الموت " رواية تفنن خلالها الكاتب في أمرين اثنين :
كتابة التاريخ بالأدب،وذلك حين استحضر الشخصيات والأحداث الحقيقية لمعركة وادي المخازن.
وكتابة الأدب بالتاريخ،وذلك حين استعار شخصيات من محض الخيال، ليملأ الفراغات،ويكمل عقد الفواعل الأساسية،عن طريق الاستعانة بمخيلة لم تذهب بعيدا عن حقيقة الأحداث.
أتوقع لها التميز والنجاح...
محمد جعدان، أستاذ ، وباحث في تاريخ المغرب:
إن عملك هذا يعد إنجازا مشرفا للرواية التاريخية،تحاول الرواية المزج بين النفس التاريخي للأحداث،والنفس السردي المتخيل، وهو من أصعب الأنواع ، بعنوان بليغ ، وقفلة جيدة تخللتها دراما في سرد الأحداث،مع توظيف التراجيديا (موت الشخصية الرئيسية في الحكاية).
كلثوم العابدي:أستاذة مادة الاجتماعيات، وباحثة.
جسر على وادي الموت رواية متميزة،وذات حبكة رائعة ،جعلت من معركة وادي المخازن موضوعا لها ،عنوانها يوحي بالإثارة والتشويق، نص الرواية غني بالتفاصيل التي تجعل القارئ يفكر فيما يقرأ ويعيش أحداثه ، بنوع من الاتساق والانسجام الذي يبني حبكة القصة.وأسلوب حكي جعل من معركة النصر تاريخا يمشي ويتكلم بلسان كاتبه.
سعيد إدريسي ،أستاذ لغة عربية،شاعر وناقد :
هذا العمل،كتابة روائي مؤرخ،يجمع بين عمق الإطلاع، وأصالة التعبير ورقي الفكرة،يأسرك في عالم المحكي حتى لكأنك تخال نفسك حيا بين شخوص الرواية تشاركها حياتها على أرض الواقع،لا على الورق فحسب.رواية مشوقة،وذات حبكة رائعة ،مكتوبة بيراع أديب مبدع، ولوحة مرسومة بريشة فنان،ووثيقة تاريخية تستحق الاهتمام.

جسر على وادي الموت
إدريس النعيمي

الفهرست:

-الفصل الأول:العدو خلف الأبواب.....ص**13**.
-الفصل الثاني:أسير في مقتبل العمر.....ص**25**.
-الفصل الثالث:بطل يولد من الرماد.....ص**37**.
-الفصل الرابع:راية السعديين بقرية الجبل.....ص**56**.
-الفصل الخامس:رياح النصر قادمة.....ص**89**.
-الفصل الأخير:قدر عند نهاية النهر.....ص**127**.